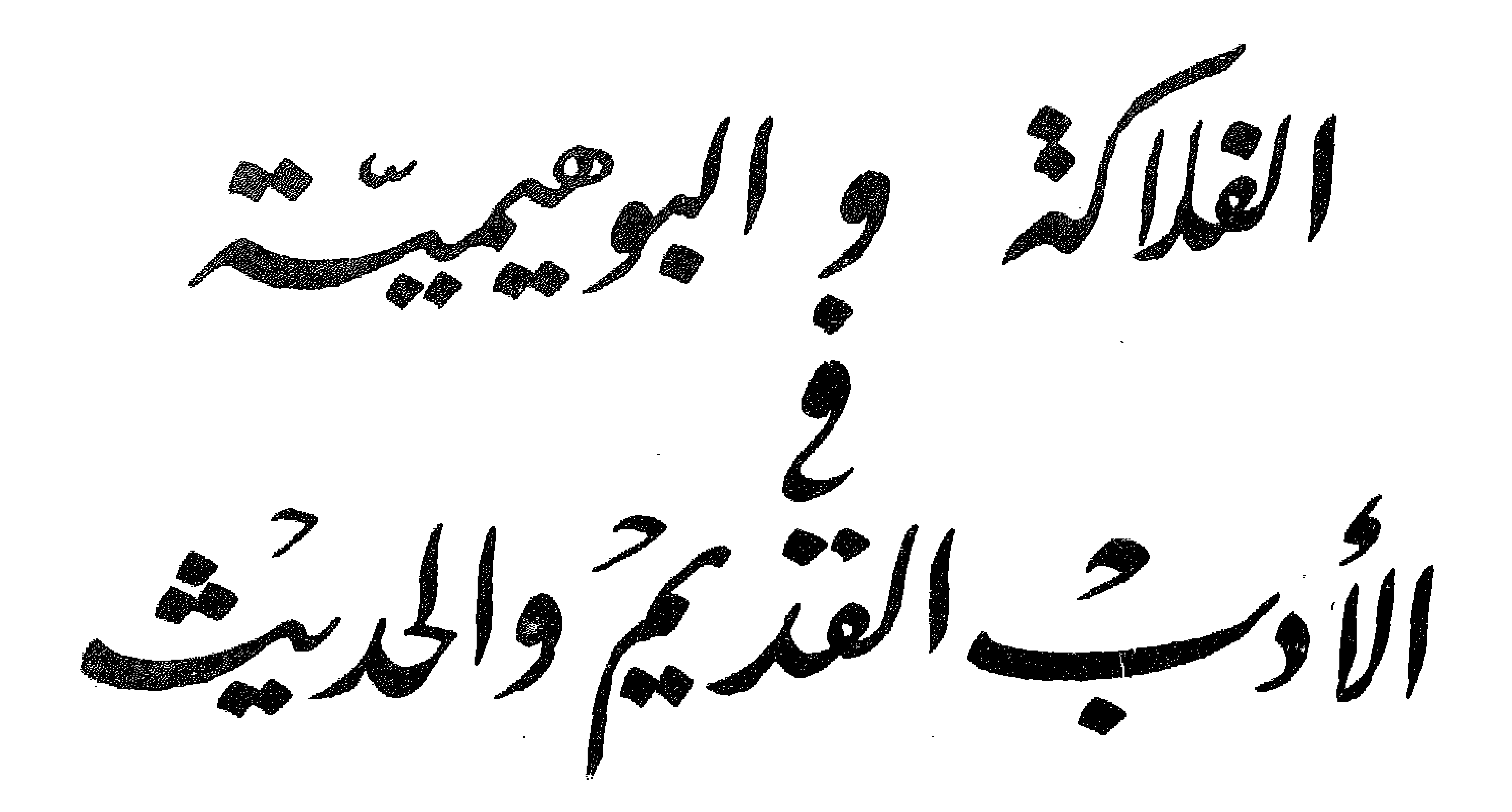


محمد لطفي جمعة

مراجعة

رابح لطفي جمعة

١٩٩٨ / ١٩٩٩



٣٨ شارع عبد الخالق ثروت – القاهرة ت: ٣٩٢٦٤٠١

الفلاكة والبوهيمية في الأدب القديم والحديث

محمد لطفي جمعة

مراجعة
رابح لطفي جمعة

١٩٩٨ - ١٩٩٩

تقديـــم
للأستاذ
احمد حسين الطماوى

كتاب الفلاكه والبوهيمية فى الأدب القديم والحديث لمحمد لطفى جمعه دراسة حافلة بالمعلومات والآراء فى قضية قديمة جديدة، مدارها حول الأدباء الذين طغى عليهم الفقر ، وطوح بهم البؤس بعيداً عن سرور الحياة ، وأشاع فى نفوسهم قلقا وكمدا وقتامة .

ولم يشرح لطفى جمعه المعنى اللغوى لكلمة «فلاكه» . وقد نظرنا في «لسان العرب» مادة «فلك» فألفينا : «فلك الرجل فى الأمر وأفلك لج» . ولج قد تأتى بمعنى الابتلاء . قال ابن الأعرابى : ولو عراك لج بى منيتها . وفسره فقال : لج بى أى ابتلى بى . ولُج الليل بضم اللام شدة ظلمته وسواده . ويقول الزمخشرى فى أساس البلاغة «لج» تطلق مجازا على من «لج به الهم والنزاع» ، ويؤخذ من هذا أن المفلوك هو الذى رمى به الهم والفقر والبلاء فى لجج البحر الأعظم وتموج مع أمواجه ، وتقلب فى دوامته ، والمقصود دوامة الحياة .

وكلمة «فلك» استخدمت قديما فى مجال الفقر ، وقد أشار أحمد أمين فى كتابه «ظهر الإسلام» الى كتاب قديم عنوانه «الفلاكة والمفلوكون» وضعه الشهاب الدلجى يتناول الفقر والفقراء من الأدباء،

وكتاب «الفلاكة والبوهيمية» يسير على دربه، إذ يعرض لمن نسميهم أدركتهم حرفة الأدب .

وفى هذا المبحث يجول لطفى جمعه بفكره وينقل طرفه من الماضى إلى الحاضر ، ومن الشرق إلى الغرب حتى يلم بحقائق موضوعه قبل أن يطلق أحكامه .

وتسعفه ثقافته المتنوعه فى تقديم نماذج من هؤلاء الأدباء الذين قهرهم الفقر، وسدت فى وجوههم سبل الفرج ، وتصعلكوا فى دروب الحياة من أمثال : أبى عثمان شيخ الإمام مالك الذى لم يجد قوتا ولا ثيابا ولم ينتفع بعلمه وعقله ، وأبى الطيب الطبرى الذى كان يلبس مع أخيه قميصا واحدا وعمامة واحدة إذا لبسهما أحدهما مكث الآخر فى البيت . ومن المحدثين على الليثى قبل تلؤلؤه فى عصر إسماعيل وعبدالله النديم وإمام العبد ، وحافظ إبراهيم قبل عمله بدار الكتب ، ومن الأوربيين جان جاك روسو الذى ألقى بأولاده الخمسة فى ملجأ اليتامى واللقطاء ولم يحاول البحث عنهم طوال حياته .. وغيرهم .

واذا كان نصيب هؤلاء فى الأدب والفكر جزلا ، فإن حظهم من الحياة بسيط، وذلك يحتاج الى تفسير وتعليل . ومن هنا لم تكن غاية المؤلف الاسترسال فى سرد تراجم المفلوكين وتقرير حقيقة الفقر عندهم ... إلخ . أو استقراء ظواهر هذه الحالة فقط ، وانما كان تعليل الظاهرة هو مجال فكره ليقف على الأسباب المؤدية الى فقر الأدباء.

ويذهب فى تحليله إلى أن الشرقيين يعتقدون فى تقدير الرزق «الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ..» اد فهم لايحاولون تحسين الحالة بالسعي ، ومنهم من يقدّم المبدأ على المال ، وبعض الأدباء ضعاف الشخصية ، وبعضهم الآخر يتعالى على الناس ، أو تظهر فى كتب نفر منهم رقة الدين والإباحية ، وقد يكون للحياء دوره فى بؤس الأديب . فقد انتحر شاترون بالزرنيخ ولم يحاول الاقتراض لحيائه الشديد فمثل هذه الاسباب لها دورها فى نفور الناس من الأديب .

ويفطن المؤلف الى أن بعض هذه الأسباب ليست ثابتة فقد تتغير من عصر إلى عصر . إذ يرى أن الفسق والإلحاد وسوء السلوك ترفع من شأن الأديب أحيانا وتجعله يكبر فى عيون أناس فى عصور تالية . إن جمعه يأخذ فى الاعتبار عامل الزمن فى تشكيل السلوك وتلقى الأفكار . فعبر الزمن تجدّ آراء وتتغير معتقدات وإنه من الخطأ الحكم على كل فكر جديد بأنه صواب . والأجدى القول إنه يتغير .

ويعرض لطفى جمعه لنماذج أخرى من أدباء استغرقتهم اللذة الشاذة أو تملكهم حب المفاخرة بالعلم ، أو نزل بهم الهزل الى الهاوية ، وهناك من فرض على صحبه النفار منه بحسده وشراسة خلقه ومن استذله الحرص ، وهذه المعايب مازالت قائمة . ومثل هذه الشخصيات متفككة وحاملة لعوامل الفشل فى داخلها ولا يمكن أن تلتئم وتقوى إلا إذا سمت على عيوبها وتخلصت من عوامل

انحطاطها . وهذه النقائص مؤثرة فى مكانة الأديب أثناء حياته مما يساعد على خموله وإهمال أدبه .

ومن خلال هذا العرض المحدود يتضح لنا أن فقر الأدباء مرتبط بالسلوك الإنسانى أو بالطبيعه الانسانية وليس بالأدب والطبيعة الإنسانية لها دخل فى هذه الظاهرة ، ولكنها ليست السبب الوحيد ، فثمة علل أخرى . كما أن الأدب فى ذاته لايمكن أن ينتج عنه الفقر . وهناك من أثرى من الأدب ، ولكن الآفة أن يعتمد الأديب فى تحصيل قوته على أدبه ، ذلك أن الأدب قد يروج فى بيئة دون بيئة ، وفى فترة دون فترة لطوارىء تطرأ . وقد يتقبل الجمهور جنسا أدبياً دون جنس ، والأمر فى هذه الأحوال موكول إلى أذواق وأفهام القراء . وقد يحترف الأدب كثيرون ممن ليست لهم المواهب السامية فيضيع الأصلاء بين الدخلاء ، وحتى ينصف الزمن أصحاب المواهب الأصيلة يكون عذابهم فى الحياة بلغ مداه . وقد يُعرض القراء عن كاتب يكون فكره أكبر من عصره ، ورؤيته أشمل من رؤية غيره ، وحتى تعرف الأجيال الآتية علو فكره يكون قد مات جوعا .

وبالرغم من وجود هذه المعوقات فإن هناك من أصيبوا بداء التأليف الأدبى ، وهؤلاء ماضون فى طريقهم سواء ألاقوا التقدير المعنوى أو المادى أم لم يلاقوا ، ويظلون فى حركة ناشطة من غير انتظار لغاية . وكل همهم إطراب النفس ، والتعبير عن خلجات

القلب دون أن يعتريهم شعور بخيبة الأمل فى الحياة . ولطفى جمعه كان من هؤلاء ، فإنه ترك مؤلفات مخطوطة ، أكثر مما ترك من مؤلفات مطبوعة .

وعلى هذا فللمشكلة أكثر من وجه . والمؤلف لايلقى بالتبعية كلها على الأدباء التعساء ، وإنما يرى عللا أخرى ، فهو يلوم القراء الذين شغلتهم حياتهم الشخصية عن أمورهم العقلية و « شبوا على الجهل وحب الذات» وهؤلاء لايقبلون على كتب الأدب والفن والعلم والحكمة ، ونظرته صحيحة ، فإذا انعدم القارىء أو ندر كسد الكتاب ، وقديما قيل : « أكسد شىء فى سوقنا الأدب » والأمة القارئة تساعد فى تطوير فكرها بتشجيع أدبائها على التأليف .

ويشرك لطفى جمعه الأغنياء فى المشكلة ويبين أنهم معزولون عن الأدباء «أغناهم الفعل عن القول» وهذا ثابت ، فقلما تجد غنيا يهب لنجدة أديب ، أو يطبع كتابا له على نفقته ، أو يشترى عدداً كبيراً من نسخ كتاب تشجيعا له . بل إن بعضهم يقول عن الأدباء : أضاعوا وقتهم فيما لايفيد . فهؤلاء يؤمنون بعزلة الوجدان الأدبى دون اكتراث . ويفطن إلى دور الحكومة فى إنقاذ الأديب من بؤسه . وهى علل أخرى استبانها من طول مراقبته ومتابعته لظاهرة الفلاكة ولكن تبقى المشكلة قائمة وهى أن الأديب إذا اعتمد على الأدب أدركته الحرفة .

وقد أشار لطفى جمعه الى كتب تناولت هذا الموضوع مثل «

مناظر من حياة البوهيمية » لهنرى مورجيه الفرنسى . و « فلاكة الأدباء الانجليز» لرانسوم وغيرهما ممن عرضوا لأدباء وفنانين أدركتهم الحرفة ، وهذا يعنى أن المشكلة عالمية .

وأعتقد أن الأديب الذى لم تدركه الحرفة ، فى الغالب ، إما أنه كان يجيد توثيق العلائق مع الناس ، أو يعرف كيف يرهب أصحاب المال بالهجاء اللاذع فيتحاشونه بالعطاء ، أو يتملق الجمهور بما يناسب أذواقهم ويستثير غرائزهم ، أو أن يحالفه الحظ وتكثر فى حياته المصادفات السعيدة ، أو أن يكون غنيا من غير الأدب ، أو لأسباب أخرى .

وربما يكون لقوة الأدب الناجم عن الموهبة دخل فى الثراء وذلك فى أحوال ، ولكن هذا ليس على الإطلاق ، ولا يمكن القول إن جان جاك روسو الفرنسى وهربرت سبنسر الانجليزى وأباحيان التوحيدى العربى ، كانوا من ضعاف المفكرين ، لقد عاشوا جميعا تحت تأثير الفقر مع عبقرية أدبهم وفكرهم ، والأخير منهم وهو أبو حيان كان ينتظر أن تجلب له كتبه الجاه ، وتعقد له الرياسة فى قومه ، فلما حرم ذلك وشعر بقلة جدواها ، أقدم على حرقها وكان هذا الفعل لونا من ألوان استشهاد الفكر أو استشهاد مفكر غاله الفقر .

وتعد هذه الدراسة بحثا اجتماعيا إذ أن الفقر من مباحث علم الاجتماع لذلك فإن جمعه يعرض لأدباء تحدوا الظروف التى

فرضت سيطرتها عليهم وحاولوا فك الحصار المضروب حولهم باتخاذ خطوات عملية تنشط فيها القوى ، ويتجدد فيها نسيج النفس ، وقد تمثلت هذه الخطوات فى الترحال والأسفار إلى أقطار أخرى، علهم يظفرون بالرزق والرفاه ويضرب أمثلة بالشدياق وبعض شعراء المهجر ، ولكن إذا صح ماذكره عن هؤلاء ، فليس كل من ارتحل عن وطنه حقق غنما ، فهناك من عاش فى وطنه بائسا ، وأقام فى غربته بائسا لأنه منكود لم يبتسم له الحظ مثل حافظ إبراهيم الذى رحل إلى السودان فلم يصب من أسفاره وتعبه شيئا . وهناك آخرون لم يتنقلوا من أقطارهم حبا فى وطنهم ، فلم تهبهم الحياة الرخاء .

وغاية مايرمى اليه المؤلف هو أن يتحكم الأديب فى سلوكه وينأى عن المثبطات وينظم علاقات مع واقع جديد ويكيف شعوره معه لتغيير الظروف التى يعيش فيها .

كذلك يعرض لطفى جمعه للأحوال الاجتماعية لبول فرلين الذى طلق امرأته وأطلق الرصاص على ريمبو وسجن ، وأوسكار وايلد الذى قاطعه الناشرون بعد أن ثبت عليه الشذوذ الجنسى بحكم المحكمة وغير هذا وذاك من أحوال سلوكية واجتماعية لها دخل فى فلاكة الأدباء .

وإذا كان العيش من الأدب ليس من الأمور القابلة للتحقيق على الدوام ومع كل الأدباء مهما سما أدبهم ، فإن محمد لطفى جمعه ناقش قضايا مختلفة متعلقة بظاهرة الفلاكة ، ولاءم فى درسه

بين التاريخ الأدبى والاجتماعى والسلوك الإنسانى لأن بينها جميعا نغمة داخلية ، وذلك بغرض شرح ظروف وأحوال فقر الأدباء وتفسيره وتعليله ومحاولة علاجه ، وقد دافع بحرارة عن استقلال الأديب وكيانه ، وأكد على علوه فى المجتمع ، ورأى أن كنزه الأدبى أرفع من المال والجاه .

القاهرة فى ٣ مارس ١٩٩٨

أحمد حسين الطماوى

(١)

ادباء وشعراء قدامى ومحدثون

كان المرحوم محمد حافظ إبراهيم أول من ذكر الفلاكة فى الأدب العربى الحديث فى الجزء الأول من ديوانه الذى نشره فى العام الأول من القرن العشرين ، ومن شعره ذى الدلالة على حالته النفسية قوله فى مواطن شتى من ديوانه « مطبعة التمدن للمرحوم إبراهيم رمزى بك سنة ١٩٠١ – ١٣١٩ » قوله فى قصيدة بعث بها من السودان الى المرحوم السيد محمد بك بيرم سليل الأسرة التونسية الشهيرة التى نزح عميدها من تونس فى أواخر القرن التاسع عشر فرارا من مظالم الاستعمار (ص٥٤ ، ٥٥ من المطبوعة المذكورة) :

ولكنـــى مقيـــدة رحالـــى
بقيد العدْم فى وادى الهموم
نزحت من الديار أروم رزقى
وأضرب فى المهامه والتخوم

وها أنا بـين أنيـاب المنايـا

وتحت براثن الخطب الجسيم

وقال يصف حاله ص ٦٤ :

تساءلت عنى نجـوم الدجـى

لما رأتنـى دانـىَ المصـــرع

قالت نرى فى الأرض ذا لوعة

قد بات بـين الـيـأس والمطمـع

يئـن كالمفئـود أو كالـــذى

أصابـــه سهـم ولـم يُنـزع

وقال ص ٦٩ :

لكننىَ غير مجدود وما فتئت

يد المقادير تقصينـى عن الأرب

وقد غدوت وآمالى مطرّحـــة

وفى أمورى ما للضبّ فى الذنب

وقال ص ٧٣ :

سعيت الى أن كدت أنتعل الدما

وعـدت ومـا أعقبت إلا التندمـا

فهبى رياح الموت نكباء واطفئى

سراج حياتى قبل أن يتحطما

وقال ص ٩٠ :

أصاب رفاقـــى القَـدَحُ المعلـى

وصادف سهمى القدح المنيحا

فلو ســاق القضــاء إلىَّ نفعـا

لقام أخوه معترضا شحيحـاً

وقال ص ١٢٨ :

طريد دهر جائر الأحكـام

مشـتت الشمل على الـدوام

مــلازم للهــم والسقـــام

وقال ص ١٦٢ :

يا لقومـــى إننــى رجـــل

أفنـت الأيـام مصطبـرى

وقـال :

فيه شخص اليأس عانقنى

كحبيـب آب مـن سفـــر

وفى سنة ١٩٠٣ نشــر حــافظ القــسم الأول من تعــريب «البؤساء» لفيكتور هيجو وقال فى تقديمه الى الأستاذ الإمام «وقد عنيت بتعريبه لما بين عيشى وعيش أولئك البؤساء من صلة النسب»٠

وقال فى وصف الكتاب ص ٣ «وضعه صاحبه وهو بائس وعربه معربه وهو بائس ٠ فجاء الأصل والتعريب كالحسناء وخيالها فى المرآة ٠ وضعه نابغة شعراء الغرب وهو فى منفاه وعربه كاتب هذه الأسطر وهو فى بلواه» ٠

وما زال المرحوم حافظ يشكو الفلاكة ويشبه نفسه بالمفلوكين حتى أسعفته الحكومة المصرية بالمنصب والرتبة فى سنة ١٩١٢ فعاش بعدها عشرين عاماً منعما الى أن توفى فى يوليو سنة ١٩٣٢٠ فكأنه قضى عشرين عاما شابا ومتعلما ومثلها ساعيا فى الرزق مسالما ومحاربا مهاجراً الى حدود الأربعين ثم محا الله آية شقائه وأثبته فى لوح الأقدار ميسراً فأدركته منيته وهو فى بحبوحة من العيش، ولم تكن فاقته وإملاقه وعسره معنى من المعانى بل كانت حقائق مادية - قال الأستاذ عبد العزيز الثعالبى رأيت حافظ إبراهيم لأول مرة سنة ١٩٠٤ فى بيت أحد الأعيان بخط الصليبة بجوار القلعة فكان أسود اللون هزيلا دائم الصمت كأنه يحمل على

كاهليه جبلا ، فحاولت ليلة بطولها من بعد العشاء الى الفجر أستدرجه فى الحديث فلم ينبس بقوله سوى إنه ضابط بالجيش وليس له فى مصر صديق ولم يذكر له من خصائص أموره إلا اسمه وبلده الاسكندرية . وعلم الثعالبى بعد ذلك أن هذه كانت فترة غمرته التى لم تنجل إلا بعد العقد الأول من القرن العشرين وبعد تمام الأربعين من سن الشاعر .

كان فقر حافظ حقيقة موجعة فلم يتزوج طوال حياته ولم يعقب ولم يغادر بيته فى عمارة البابلى إلا عندما نزح الى حلوان للاستشفاء . ويروى أنه تكسب بالشعر مالا كثيراً ولكنه ضيعه فى الكرم وأناقة المطعم والمشرب وبرّ ذوى القربى ولم يكن يعاشره فى بيته سوى والدته التى انتقلت الى رحمة الله عام ١٩٠٦ .

وكانت فى مصر أسطورة تعلل فقر الأذكياء بقولهم أدركت فلاناً حرفة الأدب(١) .

كما فسروا خطأ الحديث المنسوب للرسول « ذكاء المرء

---

(١) حُرْفة الأدب (بضم الحاء وسكون الراء) هى الحرمان وسوء الحظ ، وقد شاعت عبارة «أدركته حرفة الأدب » فى مقام الحديث عن محارفة الأدباء ومايعترض حياة بعضهم من ظروف سيئة يقول جحظة البرمكى :

ما أنصفتنى يد الزمان ولا أدركنى غير حرفة الأدب

محسوب عليه » . وضربت الأمثال بنبوغ شوقى وإسماعيل صبرى والبارودى فعللوا نبوغهم بالغنى ، فقد ولدوا ودرجوا وشبوا فى حجر السعادة وكان الأدب هواية وتبعاً لمصادر أرزاقهم الواسعة من المناصب والأموال الموروثة ، وقوبلوا بشعراء نوابغ قعد بهم الدهر أمثال أحمد محرم وإمام العبد وخليل مطران والكاظمى والمويلحى والدا وولداً وغيرهم . وكان فى مصر قبل هذا الجيل أدباء ميسورون منهم خلف الغبارى ، كان يكتب شعره فى برود موشّاة بالذهب ومموّهة بالفضة ، كما كان بينهم شاعر اسمه ابن عروس عاش فى أواخر القرن الثانى عشر كان لصاً يقطع الطريق ويسطو على الآمنين وبلغت حياته فى الإجرام ثلاثين عاما وبلغت ثروته مبلغاً جسيما مما جمعه بالسلب والنهب وما جباه من الضرائب والأتاوات، وفى الحلقة السادسة من عمره كانت نفسه قد بشمت فأقلع عن الغواية وبدأ بحطام العاجلة فقسمه بين الفقراء ولم يبق لنفسه شيئا منه وهام على وجهه فى البلاد متصوفاً ناسكاً يدعو الى الفضيلة ويأمر بالعرف وينهى عن الرذيلة والمنكر ويحض على التقوى ومكارم الأخلاق وبقى على هذه الحال أكثر من عشرين سنة الى أن مات وقد أربى على الثمانين .

وكان محمد عثمان جلال (١٨٢٨) من الأدباء المجدودين ووصل فى المناصب الى قضاء المحاكم المختلطة ولكنه مازال يشكو الزمان :

الخير على الناس عمّ وفاض
وكل إنسان استكفى
وبس أنا يا عمّ رياض
وقعت من خرق القفّة

ومن زعماء الأدب والسياسة المرحوم السيد عبد الله نديم ترجم له المرحوم أحمد تيمور باشا « وهو من مجدودى الأدباء » فى كتاب تراجم أعيان القرن الثالث عشر « طبع مصر سنة ١٩٤٠ » فقال كان أبوه فى مبتدأ أمره نجاراً للسفن بدار الصناعة ثم خبازاً فولد عبد الله فى قلة من العيش فتعلم فن الإشارات البرقية وغضب عليه خليل أغا فأمر بضربه وفتح له أحد الأعيان حانوتا للخردوات فبدد المكسب ورأس المال وجعل يجوب البلاد وافداً على أكابرها ثم صار وكيلا للتتونجى بك على ضياعه ثم مؤلفاً مسرحيا « الوطن وطالع التوفيق » وممثلا وصحفيا ثم سياسيا ثائراً وخطيبا للثورة العرابية ثم فارا من وجه العدالة « على حد التعبير الحديث »

فمحكوما عليه بالنفى طول حياته من القطر المصرى ، فصار طريدا شريدا نحواً من عشر سنين الى أن قبض عليه سنة ١٨٩٢ فى قرية الجميزة « ٢٩ صفر سنة ١٣٠٩هـ » ، فسجن ثم أفرج عنه ثم نفى الى فلسطين ثم عاد الى وطنه ونفى مرة ثانية فقبلته حكومة تركيا وعينته فى وظيفة بديوان المعارف بدار السلطنة العثمانية فأمضى بقية عمره شريداً حتى لقى حمامه فى جمادى سنة ١٣١٤هـ ، وضاعت مؤلفاته ودواوينه وتاجرت أرملته فهيمة بنت مصطفى منى الحلاوية باسمه باحثة عن زوج بعد أن نغصت حياته فى البكاتوش وشباس الشهداء ، وكانت هذه المرأة تسىء إليه وتغاضبه حتى ضاق ذرعه منها وهم بإظهار نفسه للحكومة ثم تراجع وأصلح أمره معها ، ولكمته مرة على فمه فكادت تسقط ثنيتيه من الفك الأعلى فربطهما بخيط من حرير « ص ٢٣ تيمور باشا » . ومن تأمل بعين الاتعاظ فى تقلّب الأحوال بالنديم وماذاقه من علقم الزمان ومره وقاساه مدة الاختفاء على يد خضراء الدمن « فهيمة منى » ثم النفى والمرض حتى مات غريبا طريدا ، حق له العجب وعرف كيف يعبث الزمان بأهل الفضل والأدب .

ومن أدباء القرن التاسع عشر محمد إمام العبد وتوفى فى

أوائل العقد الثانى من القرن الحالى ، وهو وحيد أسودين جلُبا الى مصر وبيعا فيها لبعض البيوتات الكبيرة وجمعتهما الأقدار برابطة الزواج وكان يرى أن حياته على الأسلوب الذى تجرى عليه لاتكفل نظام الأسرة ونظر فى ذلك الى بؤسه وحاجته فآثر ألا يشرك معه زوجة فى هذه الحياة القلقة التى لاتستقر على حال (ص١٥٦ أدب الشعب المظلوم والصباحى طبع مصر ١٩٣٦) وروى المرحوم صالح مجدى القاضى ابن المرحوم مجدى باشا أن محمد إمام العبد أدركته الفاقة فدخل داره فى شارع الخليج ولم يخرج منه حتى وافاه الموت .

وكان المرحوم الشيخ محمد النجار من أكبر أدباء القرن الماضى وكان عالماً أزهريا وكاتباً بليغا وشاعرا مبتكرا جم الخواطر متين النظم فى الشعر والزجل، الى سرعة الخاطر وحضور البديهة حتى صار فنه مثابة المتأدبين ومجلسه كعبة الأدباء ، وكان قليل المال ولم يدخر شيئا ولم يقد شيئا بأدبه سوى ما أنفقه على مجلته «الأرغول» وعلى مجالس الأدباء فى المقاهى البلدية والإفرنجية .

ومن الشعراء الذين نعموا بالمال والمنصب وشقوا بالحياة وأحزانها المرحوم حفنى ناصف وكان قاضياً وأديباً ومؤرخاً وخبيراً

بتاريخ اللغة وأسرارها فى كل عصورها ، وأشرف فى آخر أيامه على طبع المصحف الشريف المطبوعة المثلى ورمته الأقدار قبيل الوفاة بقصف غصن بنته المحبوبة المرحومة ملك ناصف « باحثة البادية » وسجن أولاده جلال الدين ومجد الدين وعصام الدين فى شؤون سياسية إبان الثورة المصرية ولكنه كان كالجبل الراسخ إيماناً وصبراً .

واشتغل الشيخ حسن الطويل فى شبابه فى أعمال السخرة بالسكة الحديدية وما أشبهها من الأعمال الشاقة ، وألحقه سعيد باشا بفرقة النماردة (جمع نمرود) وخرج من غير علم أبيه من قريته (منية شهاله بالمنوفية) وهو لايملك شيئا فمشى على قدميه يبيت فى كل بلدة تصادفه حتى وصل الى القاهرة ودخلها من جهة باب الحديد فاشترى بما معه شيئا أكله .

وكان الشيخ على الليثى مقيما بمسجد الإمام الليثى وينزل الى الأزهر لطلب العلم ويعود للمبيت بالمسجد وكان كريما على فقره، ولما تولى سعيد باشا على مصر أمر ضابط مصر عبده باشا بجمع من يأكلون أموال الناس بمعرفة الزايرجة والأوفاق (الباطل والخزعبلات) ونفيهم إلى السودان ، فسيق الشيخ على الليثى معهم

لما علق به من هذه التهمة ، فبقى فى السودان الى أن عفى عنه وعاد لمصر ، ولما تولى إسماعيل تلالأ نجم الليثى وبدأ سعده ٠

وكان الشيخ أحمد مفتاح العالم الشاعر الناثر (١٢٧٤هـ) من أقل الأدباء حظا ، ففى أثناء مجاورته كان مسافرا من بلدته الى القاهرة فى سفينة كبيرة أيام زيادة النيل ونزل يغتسل على سكّان السفينة (الدفة) مع جماعة فانحدر مع الماء فى وسط النيل فمازال سابحاً حتى كلت سواعده وكاد يغرق ، وسافر مرة أخرى فى سفينة فتشاحن مع ربانها تشاحناً أدى الى إخراجه منها فخرج الى الرقة (إقليم بنى سويف) وهو لا يملك شروى نقير سوى كتاب مخطوط رهنه فى أجرة القطار لبلدته ، وله نوادر كثيرة من المشى على القدمين مسافات بعيدة والمبيت على الطوى فى كل غدوة وروحة بين القاهرة وبلدته ، ثم اشتغل بالتدريس والصحافة وكان غريب الأطوار سريع الغضب له شذوذ فى أخلاقه ، له هزة وتبختر فى مشيته لمرض كان أصابه فى ظهره ورجله وتوفى وحيداً فى داره بمصر الجديدة والأبواب مغلقة عليه وبقى أياما لايعلم به أحد حتى كسروا عليه الباب فألفوه مائلا فى سريره وجزء من كتاب الأغانى ملقى بجانبه (٢٨ محرم ١٣٢٩) ، وقرر الطبيب أنه مضى على وفاته ثلاثة عشر يوما ، وكانت له وقت وفاته بنتان متزوجتان ٠

وإن نحن حاولنا أن نحصى الأدباء والعلماء الذين صادفتهم متاعب الحياة وقضت الأقضية على آمالهم فى السعادة فلن نستطيع الى ذلك سبيلا وكتب الأقدمين حافلة بتراجمهم ، ولكن أردنا تقديم نماذج وأمثلة من الأنداد والمتعاصرين فى هذا القرن ، ومن هؤلاء من أدركناهم وعاشرناهم واستقرأنا تراجمهم وخواطرهم وعرفنا ثلاثة شبان شعراء وكتاب انتحروا أولهم محمد راضى (١٩١٢) وأحمد العاصى (١٩٣٠) وإسماعيل أدهم (١٩٤٠) · وقد قرأنا لهذا الأخير أدباً رائعاً وعلماً وفناً ورأيناه فى مدينة الإسكندرية (صيف ١٩٣٩) وكان شابا ضئيل الجسم ضامراً مريضاً لايدل مظهره وحديثه ومجلسه على شىء من أدبه وذكائه ولكن كان بلا ريب موهوبا ولا مسنا عداوة أقرانه له وحسدهم إياه واستهانتهم بشأنه لتميزه بلا ريب عليهم مع فقره وعجزه عن مجاراتهم فى سبل الحياة المادية وسمعنا على الخصوص غيبته مرغمين من رجل متعالم يدعى الأدب نظماً ونثراً ويحقد على أدهم حقداً أسود وينفر الناس من لقائه مع أنه من قبل عام واحد كان يشيد بعلمه وفضله وأدبه ويخلع عليه الألقاب ويقدمه للجمهور كما يقدم أعضاء المجامع العلمية فى أوروبا · وكان أدهم كذلك يخدم

شهرة هذا الرجل بالحق أو بغيره للصداقة التى كانت بينهما ، فلما أغلق الأديب المتعالم حانوت تجارته الأدبية حمل على صاحبه بالأمس حملة منكرة وقيل فى أسباب انتحاره كثير ، ولكن معظمها الفقر والمرض وقيل إنه علل قتل نفسه بالتبرم بالحياة والضجر وطلب الى ذوى الحل والعقد أن يحرقوا جثته ويذروا رمادها فى الريح والبحر .... إلخ . ورثاه كاتبان أو ثلاثة فى الصحف والمجلات وكان بعضهم يعجب بذكائه وزكانته واقتداره وصبره على العمل ، ولا نظن أنه جاوز العقد الثالث ولكنه كان ناضجاً قبل الأوان وقد أثنى على كتاب وشعراء وحلل أدبهم على الطريقة الأوروبية الحديثة ولم يعن أحدهم به فى حياته أو بعد مماته .

ومن أجداد هؤلاء الأدباء والعلماء والنابغين فى الشقاء الذين نبحث فى تخفيفه ومحاربته للقضاء عليه ، القاضى عبد الوهاب البغدادى ، نبت به بغداد على عادة البلاد بذوى فضلها فخرج منها وشيعه أكابرها وحزنوا لفراقه ، فقال لهم لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين فى كل غداة ماعدلت بلدكم بلوغ أمنية ، ثم قصد الى مصر (٤٢٢هـ) فمات فى أول وصوله من أكلة اشتهاها وقال وهو يتقلب ونفسه تتصعد « لا إله إلا الله لما عشنا متنا ! » وهى كلمة تحمل فى طياتها حكمة كاملة .

ومات ابن مالك الأندلسي شيخ النحاة في عصره وإمام اللغة والأدب سنة ٦٧٢ هـ وخرج من الدنيا ولم يتعلق بأعراضها ، ولا قرطس سهمه في أغراضها ، وضاقت البصرة بالنضر بن شميل الشاعر صاحب غريب الحديث والشعر فخرج لوداعه ٣٠٠٠ محدث ولغوى وعروضى ومؤرخ فقال لهم « يا أهل البصرة لو وجدت كيلجة باقلى مافارقتكم » ، فلم يجد فيهم من يتكلف ذلك عنه أو يتعهده وحنانهم كحنان الأوز عطف ولا ثدى (توفى ٢٠٤هـ) وانتحر الأخفش الصغير لفقره بأن أكل السلجم النيىء فقبض على فؤاده فمات فجأة (٣١٥هـ) ٠

وقضى شهاب الدين التلعفرى نحبه وكان من أبرع الأدباء والشعراء ، وهو يستجدى ويقامر (سنة ٦٧٥هـ) حتى بقى في أتون من الفاقة ٠

وكان الترمذى يعيش سبعة عشر يوما على اللفت (٢٩٥هـ) ولم يكن لفقهاء الشافعية أرأس منه فى زمنه ٠

وبقى أبو العباس الأبيوردى الخطيب الفقيه سنين لايقدر على شراء جبة يلبسها فى الشتاء ويعلل ذلك بقوله « بى علة تمنعنى لبس المحشو » ومات سنة ٤٢٥هـ ٠

وعاش الشنتريني الشاعر الناثر الأندلسي قليل الحظ أسود حالا من الليل وأكثرهم انفرادا من سهيل وشبه نفسه بالإبرة تكسو العراة وجسمها عريان ومات سنة ٥١٧هـ .

ولم يكن عجز عباس الأبيوردي عن شراء جبة حادثاً مفرداً في تاريخ الأدباء ، فقد قال بعده حافظ إبراهيم بثمانية قرون (ص ١١٦ ، الجزء الأول من الديوان ، طبع مصر سنة ١٩٠١) :

صحبتني قبل اصطحابك دهرا   بذلة في تلون الحرباء

نسبوها لطيلسان ابن حرب   نسبة لم تكن بذات افتراء

كنت فيها إذا طرقت أناسا   أنكروني كطارق من وباء

كسف الدهر لونها واستعارت   لون وجه الكذوب عند اللقاء

وعطف على أخلاق معاصريه من بني وطنه فقال :

إن قومي تروقهم جدّة الثو   ب ولا يعشقون غير الرواء

قيمة المرء عندهم بين ثوب   باهر لونه وبين حذاء

(٢) من أسباب الفلاكـة

وبعض هؤلاء العلماء والأدباء في الشرق يعتقدون بتقدير الرزق وهم قانعون بتقسيم المال حسب القرآن الكريم « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقبض » ففسروه بالرضى والصبر وعقم السعى لتحسين الحال وكانت العقائد الدينية متمكنة من نفوسهم ٠ فمن هؤلاء الأدباء الذين عاشوا على الكفاف الخليل بن أحمد إمام النحو وواضع علم العروض وأستاذ سيبويه ، كان يعيش فى البصرة العيش الخشن الضيق وهو يسكن خصاً من الأخصاص لايقدر على فلسين وأصحابه يكتسبون بعلمه الأموال (توفى ١٧٠هـ) وكان يقول :

الرزق عن قدر لا الضعف ينقصه
... ولا يزيدك فيه حول محتال

وقد يكون أحدهم عاقلاً عالماً مدبراً حصيناً فى كل شىء إلا فى تدبير ماله ، فقد كان أبو الطيب الطبرى شيخ الشافعية فى القرن الخامس صحيح العقل والفهم والأعضاء يفتى ويقضى ويشتغل ، ومع ذلك لم يكن له ولأخيه سوى عمامة واحدة وقميص

واحد إذا لبسهما هذا جلس الآخر فى البيت . فقال القاضى أبو الطيب :

قوم إذا غسلوا ثياب جمالهم

لبسوا البيوت الى فراغ الغاسل

انظر الى قوله « لبسوا البيوت » واحزن معى على ضياع ذلك الذكاء المفرط حيال ذراعين من القماش وآخر من الشاش ! .

وكان فى مصر عالمان جليلان تخرجا من الأزهر واشتركا فى جبة واحدة ولكن أدركتهما رحمة الله بعد ذلك بثلاثين عاما أحدهما المرحوم أحمد سمير الأديب الشاعر المشهور (توفى ١٩٠٦) .

وكان أبو عثمان أستاذ مالك بن أنس لايجد القوت ولا الثياب، سئل كيف حظى مالك بك وأنت لم تحظ بنفسك فلم تنتفع بعلمك وعقلك وحياتك ؟

فأجاب إن مثقالا من دولة خير من حمل علم (توفى ١٣٦هـ) وهو يعنى بالدولة الجاه والحظ العالى ..

وبعضهم يقدم المذهب والمبدأ والخطة الشريفة على المال ، فقد رد المازنى إمام عصره فى النحو والأدب مائة دينار لقاء درس يلقيه على بعض الناس فعاتبه المبرد صاحب الكامل بقوله « أترد هذه

المنفعة مع فاقتك وشدة إضاقتك ؟ فقال غيرتى على آيات القرآن لا أمكن منها فلاناً ، ووصل الى يده ألف دينار فأسرع الى إنفاقها وقال معتذراً إن الفاقة الدائمة يلزمها حوائج مجتمعة ومصارف مؤخرة لاتفى بها الألف ولا ما فوقها والدنانير إنما هى دنانير بغداد وهى دراهم فى الحقيقة (توفى ٦٤٩هـ) ٠

وهذه النبذة تكشف لنا عن جوانب الحقيقة ، فقد صدق فى أنه يضنّ بفكرة وهى احترام القرآن ولو كان فى صيانتها حرمان فهو يضحى بالمال فى سبيل المبدأ سواء أكان صواباً أو خطأ ولذا ترى صاحب الكامل يلومه على تشدده ، فإن آيات القرآن معروضة لكل قارىء وسامع - ثم تراه يستهين بألف دينار ويعلل استهانته بأن العبرة والفائدة فى انتظام الرزق بوروده مياومة كأجر العامل أو مسابعة كالبناء والمعمار أو مشاهرة كالموظف أو مساناة كصاحب الزرع ٠ أما الذى لايرد رزقه إلا مصادفة فقد يتراكم عليه من الدين والمطالب ما يجعل المال الوارد فى يده قليل الاستقرار سريع الزوال، ولذا ترى الموظفين وأصحاب المناصب أسعد حالاً لربط رزقهم فى أوقات محددة ، فتكالب الناس على تلك الموارد المنتظمة وإن كانت محددة ، فى حين أن البعض يفضل رزق المصادفة لما فيه من معنى

الاتكال وترقب العناية الإلهية التى لاتقصر أبداً • فهذا العالم النحوى (المازنى) دلنا على أن حالة الاقتصاد فى القديم هى نفسها التى نراها الآن ثم إنه يصف دنانير بغداد بأنها دراهم فى الحقيقة، وهذا مانشاهده فى العواصم الكبيرة فى عصرنا ، فإن الجنيه إذا استبدلت به فضة سارع الى النفاد حتى شبهوه بالعصفور لطيرانه وقلة قيمته حيال مايشترى به من الكماليات وحيال كثرة المطالب ووفرة مايعرض فى الأسواق والناس فى أشد الحاجة اليه •

وفى قصة بيجماليون من عمل جورج برنارد شو على لسان دوليتل الزبال للغنى :

أنا آكل كما تأكل وربما كانت شهية الطعام عندى أقوى ، ومن المؤكد أننى أشرب أكثر مما تشرب (يقصد الى الخمر لأنهم لايشربون الماء فى انجلترا) •

ولكن ليست غايتنا تقرير حقيقة الفقر عند الأدباء ولكن تعليل هذه الحالة ، وهى تستبين بالحوادث الفردية والنظر فى تراجمهم •

وأول من بحث من الفرنجة فى هذا فيكتور هيجو فى كتاب البؤساء ، فكشف عن كثير من فضائلهم ، وكان فى عصره هنرى مورجيه فى كتاب « مناظر من حياة البوهيمية » ولكل كاتب منهما

منحى نحاه فنظر هيجو فى العوز الاجتماعى الذى سببه الظلم ونظم الحكم وتحايل رجال الدين والسلطة لإذلال الضعفاء ، أما مورجيه فقد وصف حياة المصورين والأدباء والشعراء فى مستهل أعمارهم كما فعل دى مورييه فى قصة تريلبى الشهيرة .

وكان جان جاك روسو طول حياته يأكل من كسب يده ينسخ ألواح الموسيقى وقضى ردحاً من الزمن متنقلا فى بيوت الأغنياء وأحضان النساء المرزوقات من كل الطبقات حتى عقد زواجه على خادمة ورزق منها خمسة أولاد فألقى بهم فى مهد اليتامى وملجأ اللقطاء خشية الإملاق (اعترافاته المطبوعة) ولم يحاول البحث عنهم طول حياته ، ومع هذا وذاك فقد أثرى الناشرون والطابعون من كتبه وأفاد بها ألوف المفكرين ورجال العلم وأوجد مبادىء الثورة الفرنسية ولم يعلم عنه أنه ادخر مالاً أو نشباً أو استمتع براحة القلب والفكر ، وانتهزت زوجته الحقيرة فرصة موته وتزوجت من سايس خيول وعاشرته فى الإصطبل بعد معاشرة الفيلسوف العظيم، وتاريخ حياته منذ فراره من بيت والده فى جنيف الى أن شاخ وألف كتاب الاعتراف مبسوط خير بسط بصراحة مزعجة وحرية تذهل الفكر فى ذلك الكتاب .

وكان أبو سعيد السيرافى شارح كتاب سيبويه لايأكل إلا من كسب يده ينسخ ويأكل (توفى ٣٦٨هـ) .

وقد ينشأ قلة الرزق من خلق الأديب أو العالم نفسه كما وقع للقاضى نجم الدين ، فقد كان متهوساً بالحكمة يقول عن نفسه أنا حكيم الزمان فمقتوه ، كما كان الأنماطى الشاعر الناثر الراوية كثير الدعابة مع الشبان مما أسقط هيبته (ت ٦١٩هـ) كما كان بدر الدين بن مالك النحوى الأديب العالم بالمنطق والعروض مبتلى بمعاشرة من لا تليق معاشرته فنبذه الفضلاء من أهل طبقته ، ولكن هذا لايمنع أن غير هؤلاء الثلاثة أصيبوا بالفقر دون أن يصابوا بعيب خلقى كالهوس بالحكمة أو مداعبة الشبان ومعاشرة الطبقات النازلة ، وقد يكون الفقر نتيجة اتهام صاحبه العالم أو الأديب بالخمر والفسق ورقة الدين والزندقة . وقد انقلبت هذه المحارم مكارم فى بعض البلاد فى هذا الزمان تدر على صاحبها النعيم والمناصب والجاه والأموال وذلك تبعا لتغير الدول والأزمان .

فقد كانت نسبة الأديب إلى إحدى تلك المعايب سبباً فى نفور الناس منه وتفرّقهم عنه حتى يبتلى بقلة الرزق .

أما الآن فكلما ألح الأديب فى إحداها ولا سيما القمار

والمعاقرة والفسوق والإلحاد كان ذلك سبباً فى اشتهاره والخوف من علمه ونسبة الذكاء إليه والانتفاع بنقائصه لخير الدولة ، وكلما كان الرجل متمسكاً بالفضائل والعقيدة وصفوه بالانقباض والرجعية والسخف وعدم مجاراة العصر ، وبين الأمرين سبعة قرون فقد انقطع رزق العفيف التلمسانى من أدباء القرن السابع الهجرى بسبب اتهامه بالشراب والغزل ونوع من الإباحية لأولاده (ص ١٤٠ ج ٧ دول الاسلام لعلى بن خلف) ، قال قطب الدين رأيت جماعة ينسبون العفيف الى رقة الدين وقلة الحياء فقالوا هذا الشيخ لايستحى الله من عذابه . وكان الانحراف القليل عن الفضيلة والدين يفضح الرجل ويؤذيه ، أما الآن فقليل من الانحراف عنها ينفعه ويعود عليه بالخير والبركة والمناصب العالية ! .

ولكن النفاق والرياء والتظاهر بالاستمساك بالفضيلة مازالت الى أواخر القرن التاسع عشر سائدة فى أوروبا فسقط پول ڤيرلين وأوسكار وايلد وسجنا لاشتهارهما بالشذوذ الجنسى وعوقبا بالحرمان والفقر ، ونفرت من أوسكار وايلد تبعاً لخطة البورجوازية امرأة كانت من أئمة الدعارة هى سارة برنار ، فقد قاطعته بعد حكم المحكمة عليه بالسجن وفسخت عقودها معه على التأليف

لمسرحها وخشى الطابعون والناشرون والممثلون أن يذكروا اسمه خوف مقاطعة الجماهير ، ثم استعاد مجده بعد موته واستغلوا أدبه وكتبه بعد أن توغلوا فى الرذائل والإباحية وعدّوا معاصيه هيّنة فى جنب الجيل الذى خلف جيله (انظر كتب فارمان وجاكسون وماكس نورداو فى تاريخ الأدب الغربى فى أواخر القرن ١٩) .

وكان نصيب پول ڤيرلين أبشع ، فقد طلق امرأته وتردّى فى أوحال الفاقة وأدمن الشراب وعاشر الأردياء والسوقة على نبوغ عظيم وقدرة فى الشعر لم يسبق اليها ، ومات فى أحضان معشوقة لئيمة واستغنى أقاربه وورثته بشعره ونسبت اليه المدرسة الرمزية فى الأدب الفرنسى ، وسبب نكبته علاقته بولد نابغ هو ارتور ريمبو أزمع على فراقه فأطلق فيرلين عليه الرصاص فى مدينة بروكسيل فأصاب كفه (١٨٩٠) .

وممن نكبوا بسبب هذه العاهة الخلقية على بن منصور الحريرى (غير صاحب المقامات) ، كان متصوفا وأقام شرائع الحقيقة ظاهراً وباطناً وامتدحه شهاب الدين أبو شامة (ت ٦٤٥ هـ) وكان يعاشر الأحداث ويصحبهم ويقيمون عنده ولم يكن عنده مراقبة ولا مبالاة ، فحبسوه وسأله أصحابه أن يسأل ويتشفع فلم يفعل ،

فلما أقام فى الحبس أربع سنين ألحوا عليه فى طلب العفو فأمرهم أن يكتبوا عريضة فيها « من الخلق الضعيف الى الرأى الشريف ممن هو ذنب كله الى من هو عفو كله سبب هذه المكاتبة الضعف عن المعاتبة أصغر خدم الفقراء على الحريرى » وأراد أصحابه أن تصل الى السلطان ، فما قرأ أحد من رجال الدولة هذه الورقة إلا ورمى بها وأقام بالحبس سبع سنين وتوفى فى أواخر القرن السابع الهجرى .

وكان پول ڤيرلين وهو فى سجن بروكسيل يكاتب فيكتور هيجو فأجابه بمكتوب عجيب :

شاعرى العزيز استقم كما أمرت   هيجو

فلم تفده الشفاعة عند أحد غير مأمور السجن الذى أكرمه منذ رأى شاعر فرنسا الأكبر يكتب اليه كتاباً .

ومن هؤلاء الأدباء والعلماء من كان شرس الأخلاق ميالاً للحسد ، لاتدوم له صحبة مع أحد ولاسيما من يرى إقبال الدنيا عليه ، ومنهم من كان بذىء اللسان كثير الوقيعة فى الناس لمن عرف ومن لم يعرف ، ومنهم من كان عنده دعابة فى غالب الوقت ، ومنهم من كان يحتقر الناس ولا يقيم لهم وزناً ومنهم من كان قليل

الاكترات بالمأكل والملبس ومن اشتهر بالبخل الشديد فلا يتنعم ولا يتزوج ، ومن هؤلاء النوابغ المفلوكين من اشتهر بالبساطة التى تصل الى البلاهة ، فقد كان ابن برى من أهل القرن السادس آية فى العلم والأدب واللغة والرواية والدراية ولكن فيه غفلة لايتكلف فى كلامه ولا يتقيد بل يسترسل فى حديثه كيفما اتفق ، وكان يدخل الحطب والبيض جميعا فى كمه وعليه الثياب الفاخرة وجاء الى البيت فلم يجده مفتوحاً فرمى بالبيض من النافذة ووضع العنب بين الحطب فتفجر فأساء الناس ظنهم بعقله مع أن البساطة غالبة على كثير من الحكماء ومظهرها الاستهانه بالصغائر ولكن الجمهور لايسامح نفاقاً وجهلا .

ومن الأدباء من لا يأبه للناس ولايجعل لهم شأنا ويظن أنه يتقى شرورهم بالبعد عنهم وهو فى ذلك جد مخطىء . ومن هؤلاء أبو جعفر الأديب المصرى (٣٣٨هـ) ، كانت له تآليف عجيبة منها إعراب القرآن وتفسير شعر سيبويه وفسّر عشرة دواوين وله طبقات الشعراء وشرح الحماسة ولكنه كان ضنينا على نفسه مستهترا بالناس وصل البخل عنده درجة مرض التقتير والشح ؛ فإذا أهدى إليه أحد الفضلا عمامة قطعها ثلاث عمائم بخلا وشحاً وحرصا

وكان يلى شراء حوائجه بنفسه خشية أن يسرقه الخادم ويتحامل على الناس ويتهمهم باضطهاده وتعقبه والطمع فى ماله ، ولكن أكثر من ذلك أنه كان يقصد الى الخلوات اقتصاداً للنفقة ، فذهب يوما الى درج المقياس على شاطىء النيل وأخذ يقطع العروض من الشعر تسلية فسمعه بعض العوام فظن أنه يسحر النيل حتى لايزيد فيضانه بما فيه الكفاية فيقل الزرع وترتفع أسعار الحوائج فدفعه برجله فى النيل ولم يكن يتقن السباحة فلم يوقف له على أثر فذهب ضحية بخله ونفوره من الناس وحب العزلة ، وهذه أدواء نفسية لم يحاول علاجها .

ومن أعلام شعراء الفرنجه الذين قاسوا الفقر بودلير وبوالو وشاترتون وشيلى وكيتس واندريه شينيه وأخبارهم مستفيضة فى تاريخ الأدب الأوربى وزعيمهم بيرون الذى طاف أرجاء العالم شريداً من وطنه وكان أعرج وقيل إنه عشق أخته ، وقبله جولد سميث طاف أوروبا مستجدياً بنايه وقد دلت قصيدته التى مطلعها:

والهفتاه على أكلة فى مطعم الأسد الأحمر !

التى نظمها أثناء صعلكته وفلاكته على نوع العيشة التى عاشها ، فلما أقبلت عليه الدنيا عقب نشر كتابه « مواطن العالم »

عرف كيف يستمتع بثيابه البهيجة الألوان ومسكنه الفخم فى بريك كورت تشامبرز ، وهذه القصيدة تشبه من وجوه كثيرة أسود الأشعار التى نظمها عبد الحميد الديب الشاعر القروى فى وصف حياته ولوعته على الطعام والشراب ومجالس الأحباب والليالى التى كان ينعم بها عليه الأديب الميسور خليل شيبوب فى بار اللواء ٠

اما شاترتون فقد انتحر بالزرنيخ فى وكره فى شارع بروك بهولبون لأنه كان بطبيعته ذا حياء وخجل لا يقويان على الاقتراض وقد أعجب جونسون بأدبه ووصفه بأنه أقدر شاب على الشعر، وحار كيف غاص على تلك المعانى فى فتوته وفقره (ص٢٠٣ فلاكة الأدباء الإنجليز ، تأليف رانسوم) وقد كافح المسكين ثلاثة أشهر بين أوراقه ومحابره وهو يكاد لايعرف الطعام إلا مصادفة وكان أثناء تلك المدة يكتب لأهله فى قرية هورشام ، إحدى قرى مقاطعة سوث سسكس (موطن ويلفريد سكاوين بلنت) ليحفظهم من الانشغال عليه مكاتيب تنبىء بنجاحه وسعادته ، ولأنه خجل أن يقر بفشله وقد قضى فى آخر أيامه ثلاثة أيام بدون طعام ولا تدفئة وانتحر بعدها بجرعة الزرنيخ وهو يأبى أن يقترض طعاماً من ربة الدار التى يقطنها خشية أن يعجز عن السداد ، ولما عثروا على جثته وجدوا بجوارها

سنداً على ناشر شعره بدين يستحقه الشاعر قدره عشرة جنيهات وكان هذا القدر من المال كفيلا بإعاشته أياما بل أشهراً أو على الأقل إنقاذه من الفاقة المفاجئة .

وهذا الحادث يدل على لؤم الناشرين والطابعين فى أنحاء العالم حتى فى انجلترا بلد المعاملة المستقيمة واحترام حقوق التأليف ، فقد يقتضى لؤم التاجر فى الكتب أن يعيش الشاعر أو الكاتب على الماء والهواء وأن ينتج وهو جائع عطشان حتى إذا نال عمله القبول فلابد له أن ينتظر الى أن يبيع الناشر ويربح ويضاعف ربحه بالربا ، وحينئذ يلح الأديب فلا ينال شيئا وقد ينال نسله وخلفه أى يطالب ورثته بحقوقه بعد موته ، فإن الطابعين أقصر الناس ذاكرة فى سداد حقوق المؤلفين وأشجع الناس على الجشع واهتضام الحقوق ولا سيما مع فقراء الأدباء ، وفى كل العالم ولا سيما فى مصر رجال وأسر أثرت وسمنت وتمرغت فى التبر وتمنطقت بالخز والديباج وسكنت القصور واقتنت السيارات من عرق المؤلفين ودمائهم ، وقد لعبوا على ضعف المؤلفين وخجلهم كما انتفعوا برغبة هؤلاء فى طبع كتبهم . ومات آباء الطابعين الطامعين والناشرين الشرهين فظن المؤلفون أن الأولاد خير من الوالدين ،

فكان الأولاد أشد لؤماً وخبثاً وطمعاً من والديهم ، ماتت كلاب جائعة وأخلفت أجراء كلبة مسعورة نهاشة ، سواء فى ذلك المسلمين والمصريين والمتعلمين والجهلاء وغيرهم من الأجناس الأخرى التى أغدقتها علينا الأمم الشقيقة (يا لها من مهزلة !!) ، وفى أرباب الصحف والمجلات أوغاد وأفذاذ فى الاستغلال والفجور فى الطمع ونسيان الحقوق ، يدفعون رهبة أو رغبة للأجراء وأصحاب الحروف والحرف حقوقهم ، وبجدع الأنف لا يدفعون للكاتب الذى لولاه ما صفّت حروف ، ولا دارت مطابع ، ولا عجب أن ابتلاهم الله انتقاماً ببيع مجلاتهم وصحفهم مرجوعاً بوزن الورق أرخص مما دفعوا فيه. فإذا وصل أجر الكاتب أو الشاعر إليه إنما يتلقفه كما لو كان كنزاً أو « لقية » غير منتظرة فيشيع فيه السرور فيبذر فى إنفاقه ، حتى يعود أفقر مما كان قبل أن يصل إليه حقه . وقد يكون الطابع والناشر أكثر وفاء مع الأديب الميسور أو الشاعر الشهير فيقتص منه أحدهما بحق صاحبه المفلوك المجهول فيتقاضى أجره سلفاً ثم لايدفع اليه نثراً ولا شعراً وهكذا كان يصنع أ. ش بك مع خ.ص أحد كبار المغتالين لحقوق المؤلفين .

وإذن يكون الحياء المفرط والخجل فى المطالبة بالحقوق

والانزواء والخوف من مواجهة شرار الناس وأوغادهم والاستحياء من الاقتراض عند الضرورة والخوف من عدم السداد والمبالغة فى مايتوهم الأديب أنه حفظ الكرامة من أسباب الفلاكة والفشل وقد يعقبهما القنوط فالانتحار .

لما قابلت إسماعيل أدهم فى الاسكندرية فى حفلة تأبين المرحوم فيلكس فارس الأديب اللبنانى سألته إن كان الشاعر الميسور ل. ط[1] أعانه بالبر على ما دبجته يراعته على مدى عشرين شهراً تقريظا لشعره وتحليلا لأدبه وإشادة بذكره وتمجيداً لشخصه ، فأجاب سلباً وكان صادقاً بدليل أننى لقيت ذلك الممدوح الممجد وسألته فقال إنه لم يعرف أدهم ولم يجتمع به إلا مرة واحدة في مقهى بالاسكندرية ، وكان بالطبع هذا التجاهل منْ مصلحته لئلا يُتَّهم بالإيعاز إلى الشاب بالكتابة عنه ، ولكنْ شهد آخرون بما أيد كلام الممدوح والمادح بعد موته . وكان الممدوح يقول دائماً «لفت نظرى بعض الإخوان الى مايكتبه أدهم فى مجلة ق . بعد بضعة أشهر » . وهذا من الكبرياء والجحود والتعاظم والغرور الذى يدرك

(١) هو خليل مطران الذى كتب عنه أدهم دراسة مستفيضة نشرت بمجلة المقتطف.

بعض الأدباء فى أخريات أيامهم . مع أن هذا الممدوح نفسه قبل توظفه وتراكم المناصب والمال عن طريق الزلفى والتذلل كان من كبار المفلوكين وأئمتهم ، وكان يؤلف الكتب ويهديها الى بعض العمد ومشايخ البلاد الذين لايعرفون الأدب ، وكان يكتب المقالات الطوال ويوقعها بأسماء أصحاب الصحف الأميين ، ويتندر بأقوالهم مقلداً حركاتهم كأن يقول له أحدهم وهو أغناهم « لم لا تكتب بركاكة تشبه ركاكتى أتظن الناس يصدقون ماتنسبه إلىّ عندما تغوص على تلك الألفاظ الغريبة والتعابير العويصة . أنت تريد أن تكشفنى . اكتب أسخف ما تستطيع وعقبه بتوقيعى فيكون كأحسن ما أكتب »، ومع ذلك فقد نسى فلاكته ولم يكترث لمن رفع له تمثالاً أضخم من بعال وتركه يتضور جوعاً الى أن مات منتحراً ، ولو كان من بنى جلدته لخلق له منصباً فى المزبلة التى يديرها والتى حشد لها كل من هب ودبّ من قومه النوابغ كالأصلع والأقرع وذوى البطون المنبعجة والقرون الملتوية ، وكلهم من المال المعلوم ينتهب .

لقد عجبت والله أن لم يجد ذلك الناقد المنكود الحظ عيباً ولا هنة ولا سقطة فى أدب صاحبه وقد مضى عليه أجيال وهو يعيش ويكتب وينظم ولم يجد له أحد بعض هذه المحاسن التى كانت كالكنز

الدفين المطمور حتى جاء أدهم من دار السلطنة ومقر الخلافة ينبش عنها ويظهر للعميان والصم من القراء جمالها الفاتن . ولو كانت من أدب القرآن والنبى والصحابه لم يفسحْ لها صاحب المجلة صدره وصفحاته التى أربت على المئات وكلها متداخلة فى بعضها مرقمة ومنظمة كأنها أجزاء آلة دقيقة بمحركات تمشى على عجل ، ولكن المنية عاجلت المادح المحلِّل قبل أن يتمها وقبل أن يقيم تمثال القرطجنى على مقعده فيجلسه على قمة جبال الأدب ويسلمه زمام دولة لغة العجم والعرب !.

ورأيت حب الوطن أو البلدة يقعد بالأديب عن الارتحال فى سبيل العلى والربح ، ومع ذلك فأهل بلده لايقدرونه كبعض أدباء دمياط الذين لايرحلون عنها إلا فى سبل الوظيفة الحكومية ثم يبذلون جهدهم فينقلوا إليها ليكونوا على مقربة من سوق الحسبة وغيط النصارى وشاطىء النيل ولو عاشوا على مضض ، وبعضهم يترك وطنه لئلا يشمت فيه أعداؤه وحساده فلا يعود إليهم أبداً إلا إذا غرق فى بحر من الغنى والشهرة وهيهات أن تتحقق أحلامه . وسبب هذا السفر أو الهجرة من الوطن وكثرة تنقلات الأدباء البائسين أنه متى استولت الفلاكة على شخص فى بلد واضطرب فى

أرجائها وتلكع فى طرق معاشها وذاق طبائع أهلها وشهد شهامتهم وعصبيتهم وارتياحهم الى المحامد وأريحيتهم ، وامتحن قوته فى التسلق الى مطالبه ، وأبت تلك البلدة عليه إلا نبواً ودفعاً وممانعة عن المطلوب وملّ وجوهاً لاخير فيها ومجّ سمعه كلاماً لا محصل له وقد فهم بقلبه فقذفوه بقلوبهم بل وبظواهرهم ، فحينئذ يظن أو يعلم أن تأتى المصلحة فى ذلك البلد مستحيل أو متعسر والبلد الثانى ظن الخير قائم به ولا سيما فيمن يتوهم فى نفسه استعداداً فيحب حينئذ السفر الى البلد الثاني ولو كان نائياً ، والأقيسة العقلية وإن اقتضت استمرار الفلاكة فى البلد الثانى من جهة أن موجبات الفلاكة القائمة بالمفلوك مصاحبة له سفراً وإقامة ، وكذلك موجبات بؤسه القائمة بالناس موجودة فيهم فى كل مكان وبلد ، ولكن ليس الخبر كالعيان ولا الشر الحاصل المحسوس كالشر المترقب والمنتظر المعقول ، ولذا نقف على الحكمة في تمنّى البائسين تغّير الدول والحكومات وتشوفهم الى ذلك ، فإن الدولة الحاضرة والحكومة القائمة كالبلد الأول والدولة المتمناة كالبلد الثانى ، وقوة الرجاء وقيام احتمال الخير المتعلق بالدولة الثانية حكمه حكم البلد الثانى وقد قال الشاعر :

إذا لم يكن للمرء فى دولة امرىء ؛

نصيب من الدنيا تمنّى زوالها

بعكس المحظوظين فى بلد أو فى دولة فإنهم يتمنون بقاءها ويحصل لهم من الوجل والجزع والوهم عكس مايحصل للمنكود من الطرب والفرح والأمل . وقد يصيب المتحول حظا فى البلد الثانى ويفرج كربه وقد يبقى على حاله كما حدث لحافظ إبراهيم إمام هذه الطريقة فى العصر الحديث وهو القائل :

نزحت عن الديار أروم رزقـــى

وأضرب فى المهامـه والتخوم

وما غادرت فى السودان قفــراً

ولـم أصبـغ بتربتـه أديمـــى

وقد أصبحت من سعيى وكدحى

علـى الأرزاق كالثوب الرديـم

وقال :

ماذا أصبت من الأسفار والنصب

وطيك العمر بـين الوخـد والخبـب

وددت لو طرحوا بى يـوم جئتهـم

في مسبح الحوت أو في مسرح العطب

لعـل مانـى لاقـــى ما أكابـده

فـودّ تعجيلنـا مــن عالـم الشجــب

ومانى صاحب مذهب تعجيل الفناء للجنس الإنسانى بقطع النسل ، وكان يدين بعبادة الدهر :

ويستمر حافظ :

لكننى غير مجدود وما فتئت

يد المقادير تقصينى عن الأرب

ومازال يذكر عدم النفع من التحول والارتحال :

سعيت إلى أن كـدت أنتعـل الدمـا

وعــدت ومــا أعقبـت إلا التندمـــا

سلام على الدنيـــا ســـلام مـــودع

رأى فى ظلام القبر أنســاً ومغنمـا

أضرت به الأولــى فهــام بأختهـــا

وإن ساعت الأخرى فويلاه منهمـــا !

وهو لم ير فى الفضيلة خيراً له :

فما عصمتنى من زمانى فضائلى

ولكن رأيت الموت للحـــر أعصمـا

وهو القائل أيضا :

سعيت وكم سعــى قبلــى أديـــب

فـــآب بخيبـــة بعـــد اغتـــراب

ومــا أعـــذرت حتــى كــان نعلــى

دمــاً ووسادتـــى وجـــه التـراب

وحتى صيرتنى الشمـــس عبـــداً

صبيغـــاً بعدمـا دبغـت إهابـــى

وحتى قلّــم الإمــلاق ظفـــرى

وحتى حطـــم المقـدار نابـــى

ولكن أدباء آخرين صادفوا حظوظاً جيدة بالتحول والارتحال كأحمد فارس الشدياق وعبد العزيز الثعالبى وعبد الرحمن الكواكبى ومعظم أدباء سوريا المسيحيين والمسلمين الذين نزحوا الى مصر وأمريكا ، ومن موتاهم فرح أنطون وخليل جبران وفيلكس فارس والبستانى واليازجى وصروف ونمر ... إلخ ، ومن الأقدمين أبو على القالى أصله من ديار بكر (آخر القرن الثالث الهجرى) من قرية

قلقيلية وإليها ينسب مع التخفيف ، درس فى الموصل ودخل بغداد يافعاً وخرج منها شاباً بسبب الضيق الذى شعر به فى عاصمة العباسيين ثم قصد الى قرطبة بالأندلس وأقام بها الى أن توفى سنة ٣٥٦هـ .

وقد جاء فى تاريخ الأدب أنه باع كتبه ليقتات بها هو وأولاده، فدعته الحاجة الى بيعها فاشتراها الشريف المرتضى فوجد فيها أبياتا بخط بائعها صاحب الأمالى :

أنست بها عشرين حولا وبعتها
فقد طال وجدى بعدها وحنينى
وماكان ظنى أننى سأبيعها
ولو خلَّدتنى فى السجون ديونى
ولكن لضعف وافتقار وصبية
صغار عليهم تستهلّ جفونى
فقلت ولم أملك سوابق عَبرة
مقالة مكْوىّ الفؤاد حزين
وقد تُخرج الحاجات يا أم مالك
ودائع من رب بها لضنين

وكثيرون من المعاصرين باعوا كتبهم بتراب المال ، لأن الطباعة أرخصت العلم وكان الدكتور صروف شديد الجزع من بعثرة كتبه بعد وفاته لما رآه فى حياته من بعثرة كتب المتوفين من العلماء وقال لى فى سنة ١٩٢٦ إنه يعتبر كتبه كأصدقائه وأبنائه ويسوؤه أن تعرض فى الأسواق . وهذه حال عالم ميسور فما بالك بمن يرغم على مفارقة كتبه مرغماً وقانا الله شر هذا ، وقد رأيت كثيرين يبيعون كتبهم لدى أسفارهم وارتحالهم لصعوبة نقلها وغلاء الشحن ولكن إهداءها الى المكاتب العامة أو الأصدقاء أفضل .

(٣) حالــة معنويـــة

كان روسو فيلسوف عصره كما كان فولتير ، وكان الأول متديناً والثانى ملحداً ، والأول ألف تاريخ قسيس سافوا ووضع مخطوط الاعتراف على هيكل كنيسة نوتردام كما فعل محى الدين بن عربى بوضع الفتوحات المكية فوق بناء الكعبة ، ولكن روسو عاش عيشة التشرد والتجول ولم يقتن مالاً ، وكان فولتير حاذقاً مداهناً يجامل الملحدين ويجامل البابا ويلاطف حزب الملك ويتصل

بالثائرين ويبطن الفتنة ويغوى النساء ، وروسو أغوته النساء ، وادخر فولتير مالاً كبيراً وأقام فى قرية على حدود فرنسا ليسهل له الهرب الى جمهورية جنيف الحرة وبنى له فى فرنى قصراً وأقرض أهل البلد مالاً بغير ربح ليحتفظوا به ، فالأول مفلوك لا جدال والثانى مجدود موزون ، كأن بالأول على ذكائه وفطنته وسلامة آرائه خبلاً لا يفارقه وكأن الثانى معجون بماء إبليس ، فهو مثال الدس واللؤم والغدر والخديعة ، وهذا لاينقص من قدره وكان يستأجر الغوغاء ليرشقوا بيت روسو بالحجارة وروسو عاجز عن الانتقام لأن تعقب الشر لم يكن من طبعه بل كانت نفسه موجهة نحو الخير ولم يخطىء إلا فى التخلص من نسله ، ولعل زوجته الشريرة هى التى فعلت ذلك بدون علمه أو حرضته عليه ، لقد ولد فى فجر القرن الثامن عشر وتوفى فى أصيله قبل الثورة الفرنسية بعام ، وكانت كتبه من أكبر العوامل المؤدية الى تلك الثورة التى دام أثرها من ١٧٨٩ الى ١٩٤٠ أى – وهو أول من وصم بمسبة الإجرام – الرجل الذى كان أول مبتدع لسنة امتلاك الأرض في تاريخ العالم وتوخى فى اعترافه الضخم (حوالى ألف صفحة) إظهار معايب نفسه ومحاسبتها وإبداء عوراتها ليكون فيها عبرة لمعتبر وعظة لمزدجر ،

وكان فولتير يخفى عوزاته ويتهكم على الناس ويتملق الملوك والبابا ولو على حساب الأنبياء وقد ظن اللورد بيرون أن روسو كان مجنوناً فقال عنه في قصيدة تشايلد هارولد عرف كيف يجعل الجنون جميلا وينفض على أضاليل الأقوال والأعمال رونقاً سماوياً كلالاء الشعاع يبهر عيوناً تتلو صفحاته فتسكب عليها دموع الرقة والحنان « وهو بلا ريب يشير الى نوفيل هيلويز وغيرها».

لقد كانت حياة روسو حرباً عوانا شنّها على أعداء الحق والحرية فأثار بغضاءهم وقد ثار عليهم ثورة حنق واغتياظ عنيفة هوجاء ، ولكن روسو على كل مواطن ضعفه كان واقفاً على الحقيقة الأزلية وليس بينه وبين الحق حجاب ، أليس هو القائل : « راقنى أن أضيع توهماً فى الفراغ اللانهائى وأحسست كأن هذا الكون بأسره يضيق ذرعاً بروحى الطماحة وكأنى أختنق فى فضائه على سعته إذ كانت روحى أكبر منه وأوسع ، فوددت لو أنى تعديت حدوده فوثبت فى أعماق اللانهاية ، وكان يخيل إلىّ إذ ذاك أنى لو استطعت كشف أسرار الطبيعة لكان فرحى بذلك دون ما كان يغشانى من تلك الحيرة المطربة والغموض اللذيذ والإبهام الممتع الذى سكنت اليه وأخلدت وملكته زمام نفسى فكان قصاراه إذ ذاك أن أصبح حائراً

دهشاً أيها الخالق الأكبر أيها الخالق الأكبر ! ثم أصمت لا أستطيع فوق ذلك قولاً ولا فكراً » .

أين من هذا تخبط فولتير فى قصصه وتهكمه السخيف بالبسطاء فى كانديد وتفننه فى الحيل لاقتناص الأموال من الكبراء حتى طرد من بلاط فردريك شر طردة .

لقد دلنا الاستقراء فى تاريخ الأدب على أن هذه الحالة المعنوية تصاحب أفراداً معدودين حتى فى الأدب الإنجليزى الحديث وفى مقدمة هؤلاء العبقريين الذين طلقوا الدنيا وتعشقوا الجمال والحق فرنسيس تومسون المولود فى برستون ١٨٥٩ فى بيت والده الطبيب ، ودرس كأبناء الأعيان فى الكليات وحاول الطب فى كلية أوين بمنشستر فلم يفلح وهجر دار والديه عقيب تأنيب أبيه الذى لذعه بتعبيره وتعلق بالأدب اليونانى القديم ، فسار على قدميه الى لندن فى الخامسة والعشرين من عمره واشتغل فى دكان أحذية فاتصل بويلفريد منيل صاحب مجلة « انجلترا المرحة » ، فعرف قدره وقربه واستمرت صداقتهما الى أن مات تومسون فى مستشفى سنة ١٩٠٧ قبل تمام الخمسين ، ولما عرفه منيل لم يكن له مأوى ولا يملك ثمن الورق والمداد ، فكان يدوّن شعره ونثره فى

قراطيس قديمة وكراسات بالية يمده بها صاحب مخزن الأحذية ، وبعث مقالا عن شيلى الشاعر لمجلة دوبلين التى كان عمه رئيس تحريرها فرفضت نشره ، ولكن منيل ساعده فى نشر ثلاثة أجزاء من ديوانه وعرفه بلويس هيند صاحب مجلة أكاديمى فأكرمه وأذاع أدبه ، وكان الفقر قد عضّه بنابه فأدمن الأفيون كما كان يفعل دى كوينسى ، وكان حبه الأدبى منصباً على مؤلفات إيثيل ووليم بليك ودى كوينسى ، ولعله تأثر بعادة هذا الأخير فوقع فريسة المخدرات وقد بغضه إدمان المخدرات فى المجتمع فهجر الناس وأخذ يأوى إلى ضفاف نهر التيمس وبوائك محطة تشارنج كروس وظلال الأعمدة فى كوفنت جاردن بلا صديق ولا بيت ولا زوجة ، ولا لوم على أحد فى ذلك فقد فتحت له أليس مينيل وزوجها ويلفريد بيتهما وأكرماه كلما تمكنا من قصيدة ، فقد كان ضيفاً صعب المراس يفر من الناس ويأبى لقاءهم حتى أخلص الناس له ولا يعلم أحد أن علاقته بوالديه عادت الى ماكانت عليه ، على أنه طوال حياته كان طاهراً نقياً لم يعرف دنساً وقد تحول من التدين الى التصوف والبحث عن الخالق ، ولم يطلب من عالم المادة شيئاً ولكن طلبه كان منصباً على الروح التى تحتقر الجسد وتستهين به ، لم يعلم ماهى

راحة الحياة فى البيت الهادىء ولم يفهم معنى الادخار للمستقبل وكل مغامراته كانت فى عالم الروح . وكان عقله فى كل ماعدا روحه وربه عقل طفل لايدرك ولا يميز ، ولذا لم يعرف للمال قيمة فإذا بعث إليه صاحب المجلة أو الناس صكاً أو تحويلا داخل خطاب فلا يفتحه ولا يكترث له ولعله يشعل سيجارته بالتحويل والغلاف ، فكفوا عن إرسال المال إليه وقنعوا بتسديد حسابه ودفع ديونه وإرسال قليل مال لينفقه بيده ، كان شعره ثورة علىٰ الدنيا ، لم يتحدَّ العالم ولكنه أنكر وجوده وعاش فى درجة أقل مما يقتضى الازدراء فتغلب على الدنيا :

وهكذا الناس كانوا منذ مافطروا

فلا يقول جهول إنهم فسدوا

لقد اتخذ من الفقر والأفيون دواء مسكناً لداء الروح . نظم قصيدة « صياد السماء » وصف الله فيها بأنه يتبع عبيده الى أن يعودوا اليه . كان تومسون يبحث عن ربه ويفر منه وهو يطارده ، يريد أن يقول أن لا مفر من الله فى كل زمان ومكان مهما حاول المخلوق ذلك ، أين يذهب من صياد الكون ، المؤمن يبحث عن الله والله يبحث عن المؤمن وفى هذه الفكرة عذاب الانسان الباحث الذى

لايجد لأن الذى يبحث عنه يتتبعه ويريد اصطياده .

لقد عرفنا ويلفريد مينيل وزوجته أليس مينيل فى نفس السنة التى مات فيها تومسون وهما شاعران يعيشان فى لندن فى بيت فى وسط المدينة أكسفورد ستريت ، وكان ويلفريد مينيل مشغولا بتنظيم تراث تومسون وجمع كتبه لنشرها، ومما عثر عليه مسودات المقال عن شيلى الذى رفضته مجلة دوبلين فنشرته فى تلك السنة مُعلنة أسفها على قلة إدراك محررها قبل عشرين عاماً .

وكان مينيل وهيند وويلفريد بلنت من الأدباء الميسورين لم يضنوا على أديب أو شاعر بالمعونة المادية والأدبية سواء أكان صديقاً أو غريباً عنهم ، وكلا الرجلين من أهل مقاطعة الجنوب سوث سسكس ومن أصول كريمة وكان تومسون أثناء حياته الأدبية يحمل سفطاً كبيراً كالذى يحمله صيادو الأسماك لينقل فيه الكتب التى تهدى إليه لينقدها ، فكان هذا السبت الكبير الملازم له يميزه لدى الخاصة والعامة . لقد كان مفلوكاً ومجذوباً معاً وكان غائباً بذهنه عن العالم الذى يحيط به ، ولكنه كان حاضراً بروحه مع الكون وإلاهه . وكل شعره عبادة وتمجيد ولم يصل أحد من شعراء عصره الى جمال اللغة وطلاوة الأسلوب وقوة المعانى الروحية التى وصل

إليها ، كان جميل الصورة وحشى المظهر بادى الألم مهملا فى ترتيب شعر رأسه ولحيته ولكن منظره يترك أثراً قوياً فى كل من يراه ، ولا يمكن أن يجهل المستمع إليه قدره ، فهو يتكلم بلسان عالم كيس مهذب العبارة واضح البيان ، وكان يكره المال ولا يطيق أن يراه أو يحمله لأنه لايدرى كيف ينفقه أو يتصرف فيه ، وكانت كرامته فوق كل شىء ، لا يتكلم فى شىء من موضوع نظمه ولكن يسهب فى وصف الصغائر ولو وضعت بين يديه لعبة طفل فلا يتردد فى أن يتقبلها ويلعب بها فرحاً كما يفرح الطفل . كان موهوبا ليعبر عن فكرة الروح وانطواء الكون فى النفس الإنسانية ، فهو فى ذلك لم يكن أقل من ويليم بليك وشيلى وكيتس وورد زورث ولكنه لم يتأثر بهم ، فقد بلغ فى روحانية نظمه بعض شعراء القرن السابع عشر المتصوفين دون أن يقرأ شعرهم ، وهذه النزعة التصوفية كانت تعم شعراء العصر حتى فى فرنسا نفسها كما كانت حال بول فيرلين الذى تحول من الخمريات الى الغزل ومن الغزل الى التصوف ولم يستطع إظهار فنه بأكثر من خلق أساليب وأوزان جديدة . وكان هو الآخر مفلوكا بل كان زعيم المفاليك فلم يفلح فى وظائف الحكومة ولا فى الزواج ولا فى الانتفاع بأدبه ولا فى الصداقة ،

وقضى كثيرا من عمره فى الجلوس على قارعة الطريق يشرب الإبسنت حتى يغيب عن وعيه ، ولكن لم ير الراؤون قوة فى التعبير كقوته حتى فى أشد أوقات محنته وقد يعجب أحد من القراء من اتحاد هذه الصفات سواء أكانت محامد أو هنات فى نفوس وأرواح مختلفة النشأة .

(٤) المحارفة والصحافة

بينا ترى حافظ إبراهيم يشكو الزمان فى الحل والترحال ، ويندب حظه فى الوطن وفى الاغتراب ، ويفرح ببدلة جديدة ويخلق أديم وجهه فى معاتبة الإخوان ويتلمس الرزق من كل ناحية ويناجى العظماء لينقذوه مما أصابه من الويلات والبلاء ، إذا بشوقى يمرح فى نعيم القصور ويغترف من خيرات الملك ويكيل المال كيلاً ويذرع الأرض فى أفخم السيارات ميلا فميلاً ، ويحيى مغانى المسرات نهاراً وليلا ، وينظم القصائد الطوال فى وصف المراقص والمآدب ، ويطيل فى مدح مولاه ووصفه بأنه قيصر المشرق وكسرى مصر وخير خلف لرمسيس ... إلخ ، وهو لايشعر بالفقر ولا تخطر بباله

الحاجة ، ولا يفكر فى مدّ يد المعونة الى أحد من هؤلاء الشعراء وإن لم ينالوا شأوه باعترافهم أمثال حافظ إبراهيم وأحمد محرم وأحمد نسيم والكاظمى ، إلا أنهم قد انتسبوا الى الشعر ورفعوا له رايات.

وعندما تسنح له فرصة الكلام على الأدباء تراه عارفاً حكم الدهر فى الأدب والأدباء عامة وفى رجال الصحافة خاصة ولا سيما فى مصر ، فهو لاينذب حظهم ولكنه يكفكف دموعهم وينصح لهم بالصبر والتأسى والرضى بالكفاف والقناعة بالقليل وليس هو فى شىء من ذلك ولا يرضى به ، ويشير الى « حرفة الأدب » وما يصاحبها ، ويحاول تعزية زملائه وأنداده الذين لم يسعدهم الحظ ، تارة بالنبوغ وطورا برضى الضمير ويسخر من الترف إلخ .

ولأجل أن يدرك القارىء حقيقة هذه المسألة يصح له أن يعلم أن الصحافة فى مصر على حداثة عهدها اتخذت صفة المستقر للأديب والشاعر لأن الإنتاج فيها تساعفه المطبعة والنشر والعرض السريع على القراء .

ولذا اتخذ الصحفى صفة الأديب بحق أو بغير حق واشتغل كثير من فحول الأدباء بالصحافة بل وأكبر من الأدباء . ولم تكن

الصحافة سوى الوسيلة الوحيدة للتعبير عن آراء الأدباء والمفكرين ومواهبهم بأسرع وقت وأيسر سبيل . ويكفى للكاتب أن يمر الفكر بخاطره فيدونه ثم يبعث به الى صحيفة فيراها فى غروب النهار أو فى شروق الشمس منظما مصححاً مطبوعاً معروضاً خير عرض للأنظار والأسماع .

ومن هنا جاءت مكانة الصحافة وأهميتها واتصال الأدباء بها، فإن الأديب والمفكر والشاعر لم يكن يملك أحدهم وسيلة لنشر أفكاره غير هذه ولسانه ، ولكن الصحافة جعلت فكرته أو قصيدته أو نظمه على كل لسان بين عشية وضحاها .

وكان شوقى من أوائل من عرفوا قيمة الصحافة فكان يخشى جانبها طوال إقامته فى منصبه فى السراى وبعد خروجه وعودته من أسبانيا . وكان له أصدقاء بين رجال الصحف يتألف قلوبهم ويرعى مودتهم لأغراض شريفة فى نفسه ، وكان يعتقد أن الصحافة أصبحت الملجأ للأديب المحترف الذى تلجئه الأحوال لتنظيم إنتاجه، وكان يطوف بدور الصحف زائراً ومتودداً ومتنقلا وقيل إنه كانَ يوجه أحياناً أقلام بعض كتابها وأحياناً يعمل على اتقاء حملاتها .

فلما ألف أصحاب الصحف العربية نقابة تجمع كلمتهم بعد

الحرب العالمية الأولى جاملها شوقى بقصيدة فائية كانت الأولى من نوعها(١) ، وصف فيها الأمة المصرية بالأمية حيث يقول :

وتمشـــى تعلـــم فـــى أمـــة

كثيرة من لايخط الألـــف !

ثم استطرد الى وصف بشقاء الأديب المحترف كما لو كان هذا الشقاء أمراً ثابتاً مفروغاً منه ولابد عنه وأنه يعرفه وإن لم يتذوقه قال :

فيافتية الصحـــف صبـــراً اذا

نبا الرزق فيها بكـم واختلـفْ

فإن السعـــادة غيـر الظهـور

وغير الثــراء وغيـر التــرف

ولكنها فـــى نواحـــى الضميـر

اذا هـــو باللـؤم لـم يكتنـف

خذوا القصد واقتنعوا بالكفاف

وخلوا الفضول يغلها السـرف

---

(١) الشوقيات ، ص ١٩١ ، ج ١ ، مطبعة مصر .

ورومـوا النبـوغ فمـن نالـه

تلقى من الحـظ أسنى التحف

ومـا الـرزق مجتنب حرفـة

إذا الحظ لم يهجـر المحترف

اذا آخت الجوهرى الحظـوظ

كفلن اليتيم له فـى الصـدف

وإن أعرضت عنه لم يحْلُ فـى

عيون الخرائد غيـر الخـزف

وإنها فى الحق قصيدة عجيبة المبانى بعيدة المرامى ، غامضة المعانى ، فإنه بعد أن أشاد بالصحافة ووصفها بأنها « آية هذا الزمان » ولسان البلاد ونبض العباد وكهف الحقوق وحرب الجنف وعدو الحيف وسيف المظلوم فى وجه الظالم ، انتقل فوراً الى نصح فتية الصحف بالصبر اذا نبا الرزق بهم ، ولم يشعر أحد من أصدقائه وأحبابه بأن الشاعر العظيم كان يوماً فى حاجة الى هذه النصيحة ، فقد اشتهر رحمه الله بسعة الرزق واليسر والتوفيق ثم أخذ يطرق باب الفلسفة وتعريف السعادة وأنها تستقر فى الضمير النقى ، وليست السعادة معلقة بالشهرة ولا المال ولا التنعم فى

الحياة ولا فى الصحة ولا الشبع ولا الحصول على المناصب والرتب ولا فى شىء واحد مما أجمع الناس على أنها جماع السعادة كاقتناء القصور الفخمة فى البساتين والحدائق وعلى ضفاف الأنهار والتنقل فى عواصم أوروبا وأفريقيا وآسيا وأن هذه النعم كلها التى أجمع الناس على أنها أدوات السعادة ولا المال والبنون أعنى الأولاد والبنات والأحفاد والاستمتاع بإعجاب الناس ومديحهم ، ليس شىء من هذه كلها ولا مجموعها يمت بصلة الى السعادة ، وأن السعادة قد اتخذت لنفسها محلا مختاراً فى الضمير النقى الطاهر إذا هو باللؤم لم يكتنف . ولم يفتح أعين فتية الصحف الى طريق ذلك الضمير النقى إذا كان صاحبه ملزماً بالكفاف وترك فضول المال وكيف يبلغ أحدهم ذلك النبوغ إذا كان رزقه مرتبطا حتماً بالحظ المتصرف فى أعمال الناس وأعمارهم ، وفيم يفيد النبوغ مع إعراض الحظ إذا كان إعراض الحظ يبغض الخرائد فى الجواهر التى يتجر بها جوهرى سىء الحظ ويحبّب إليهن الخزف الذى يتجر فيه خزاف مجدود ؟

أليس فى هذا الشعر كثير من التناقض ؟

شوقى بك رحمه الله لم يعرف الشقاء ولم يتذوقه ولكنه شهده

ولمسه فى حياة الأدباء المعاصرين وهو خجلان من سعادته وأسف لشقاء أنداده فكيف يهنئهم وكيف يعزيهم فى آن واحد ؟

لقد رفع من شأن الصحافة وهى حرفتهم وهم أعلامها ولكن الصحافة بنت مسعودة لتلك الحرفة المنكودة التى تدرك صاحبها فتهلكه .

فلم يجد الشاعر العظيم المرحوم إلا نصيحة الصبر على أمر مسلم به سلفاً وهو نبوّ الرزق واختلافه ، وماذا يكون أجر هؤلاء الذين رفعوا علم الصحافة عليّاً ؟

بالضبط نصيحة الفقهاء والقساوسة والكهنة والمحافظين ، احتقروا أعراض الدنيا الزائلة وهى الظهور والثراء والترف وابحثوا عن السعادة فى الضمير واذبحوا أنفسكم على هيكل النبوغ لأن النبوغ كفيل بالحظ والتحف ، ولكن هذا الحظ ليس مقيداً بالنبوغ فقد يسعف الجوهرى الذى يتجر بالصدف فيلقى فيها الدرارى اليتيمة كما يصحب تاجر الخزف فيغلو الخرائد فى حبه ويتنافسن على اقتنائه كما يفعل بنات الزنوج فى أواسط أفريقيا .

ومجمل القول أن شوقى على نبوغه وعبقريته وعمق تفكيره حائر مضطرب ، فهو لا يدرى كيف يعلل شقاء الأدباء ولا يدرى

كيف يغريهم فأرغمه الفن وأجبرته الحكمة الشعرية على المزج بين الضمير والنبوغ والحظ وتجارة الجواهر . ولكن النتيجة سلبية وغير مؤدية الى حل المسألة .

لم ينادى أمير الشعراء بالصبر ؟ ولم يصرف أنظار فتية الصحف عن السعادة ؟ ولم لم يجد مصدراً أو مورداً للنصح غير النبوغ والحظ والجوهرى ؟ ولم يلزم الأديب الكفاف ؟

هل أجاب شوقى على السؤال بالجمع بين تجنب الرزق والحرفة وهجران الحظ للمحترف ؟

الحقيقة أن شوقى لم يكن فى هذه القصيدة إلا مردداً لصدى أسطورة عتيقة منتشرة فى الشرق العربى من قديم الزمان وهى أن الرزق يتجنب حرفة الأدب ، ولذا قيل أدركته حرفة الأدب ، فى حين أن الصحفيين الذين عاصروه كانوا من الأغنياء والسراة وأصحاب الألقاب والرتب والمقاعد فى مجلس النواب ومجلس الشيوخ ولم يتصل شوقى بأحد من الأدباء المفلوكين ، لأنه كان يفرّ منهم ويعتذر إليهم حتى تألبوا عليه واتخذوا نقده وتفنيد شعره نوعاً من العبادة ، وهو رحمه الله لم يكن يحترم فى حياته ولا يجرى وراء شىء غير الأشياء التى زهّد فيها « فتية الصحافة » ، وكان يعلم عن نفسه أنه

مجدود ويقول ذلك ويفاخر به وأنه مولود بباب الملك وقد فتح عينيه على الدنانير التى ألقى بها أحد ولاة مصر ليلتقطها علاجاً لعينيه وقد احتفظ بهذا العلاج طوال حياته ولم يفرط فيه ، ولكنه لم ينصح به لأحد سواه ، بل نصح بالصبر والقناعة بالكفاف والاكتفاء بالقصد والاستغناء عن فضلات المال الزائدة عن الحاجة لمن لا مال عندهم ، وليته اتجه نحو المسألة ليحلها ولم يتبع طريقة الكهنوت والرأسماليين الذين ينصحون للمظلومين بالصبر لينالوا أنصبتهم فى العالم الآخر، ولو كان هذا النصح موجهاً الى فريق العمال أو الفلاحين كان مفهوماً أو محمولاً على الفرق بين معقوليتهم ومعقولية الشاعر العظيم ، ولكنه للأسف موجه الى الناطقين بلسان البلاد والقابضين على نبض العباد وسدنة كهف الحقوق وجنود حرب الجنف وحراس تلك الآية العصرية التى تسير مسير الضحى فى البلاد يمزقون بالعلم ستور الجهل والظلام ٠

وفى الحق أن المرحوم أمير الشعراء لم يكن موفقاً فى هذا النصح مثل توفيق معاصره حافظ الذى نعى نفسه ورثاها ووصف حالته وصف خبير بالدنيا متألم لها ولا يخفى حقيقة حاله ولا يكابر فى أفعال الأقدار ولم يحاول أن يقدم جرعة الصبر والقناعة لأحد ،

كان ثائراً ساخطاً حانقاً من الأخرى إذا تبعه إليها حظه الدنيوى ، فانظر الى الفرق الشديد بين شعر شوقى الذى لم يكابد حرفة الأدب ومايتبعها وبين شعر حافظ الذى كابدها حقاً وصدقاً أربعين عاما من حياته ، فكان الإخلاص والصدق متجليين فى شعره كما كانا متجليين فى شعر بعض شعراء فرنسا المفلوكين وفى مقدمتهم ألفريد دى فينى فى قصيدته الفذة « موت الذئب » .

(٥) من أحوال الأدباء المفلوكين

إن الحالة التى يكون عليها الأديب الذى يهجره الحظ ، على نبوغه إذا استولت عليه وسلبته القدرة على الأفعال ، انتقل الى الاسترواح والتنفس بالأقوال وذلك لما فى المنظوم والمنثور من راحة وفرج وتنقيص من ألم الباطن ومايصحبه من تنغيص ، ولذلك قلما يطيق كتمان الأسرار إلا الواحد الفذ ، وكذلك قلما يطيق استدامة أقوال تخالف مافى باطنه إلا الداهية الكتوم ، وقد شاهدنا من ذلك النوع واحداً على أكبر نصيب من الذكاء والفطنة والقدرة على قهر النفس وكان يحيط نفسه بمظاهر الرضى والسرور وعدم المبالاة

والاستخفاف بمظاهر الحياة الناعمة ، ولكنه كان فى بعض الأحيان لايملك أن يفضفض وينفلت ويتبسط ثم يرجع الى نفسه فيقبض على زمامها . أما من سواه من نوعه وهم الأقل ذكاء وفطنة ودهاء والأقل علماً بطبيعة النفس البشرية وحسبان مايكون فى أذهان المخاطب من رغبة الاطلاع على حقيقة حاله أو الشماتة به ، فهؤلاء ينصبون أنفسهم فى وسط ابتلائهم خطباء وشعراء وحكماء ، فمرة يسلون أنفسهم بترجيح الكمالات النفسانية على الكمالات المادية بالأدلة الخطابية والتشبيهات الشعرية .

ولذا جاءهم شوقى بنقاوة الضمير والقناعة التى هى كنز لايفنى والرضى بالكفاف ومحاولة النبوغ والاجتهاد .... إلخ ، لعلمه أن هذه الصور الكلامية ترضيهم ، ومرة يذكرون حالتهم ويصوغون عنها أعذاراً وحكمة وتشبيهات رائعة وكلمات فائقة تنقيصاً من بشاعة صورتها وليشغلوا المستمعين بما يوردونه فيها من محاسن الكلام عن الفكرة فى صورتها الأليمة ، ومرة يسابقون إلى ذكر مساوئهم ويجعلونها رقة أدبية أو نكتة شعرية أو كلمة هزلية قبل أن يذكرها غيرهم ليصرفوا الناس عن الاشتغال بها وليكون ذلك أخف على نفوسهم ، لأن الشخص لا يأنف من نفسه ما يأنفه من غيره

ولا يثقل عليه كلامه ككلام غيره ، وإذا ترقى الأديب كتب هذا كله فى كتاب كما صنع جان جاك روسو فى اعترافه الضخم الذى أقرَّ فيه بالسرقة واتهام الغير لينجو من الملام ثم الندم على ضحاياه وإلقاء أولاده الخمسة فى ملاجىء اللقطاء حتى التزم بعض النبيلات بالبحث عنهم على غير جدوى بعد مضى عشرات السنين..... إلخ .

ويروى أن الأخفش الصغير كان يستظهر الأهاجى التى هجاه بها ابن الرومى ويوردها فى جملة مايورده من محفوظه ، وفى تاريخ الأدب المصرى الحديث شىء من هذا القبيل فى ترجمة أحمد أبو الفرج الدمنهورى (آخر القرن ١٣ الهجرى) ، كان يعاشر من الأدباء والأغنياء كالزرقانى والقبانى والدفراوى وعبد الخالق السادات وشاهين باشا كنج والنديم وتيمور وقراعة ويتردد عليهم ويستعين بهم ، وكان يتظاهر أمامهم بأنه مفتون بشعره فيبالغ فى تقريظ نفسه وقت إنشاده ويمزج ذلك بإشارات وحركات مستظرفة، كأن يسكت هنيهة كالمأخوذ من جودة نظمه ثم يلتفت يمنة ويسرة ، مستطلعا خبيئة رأيهم فيه ويستحلفهم بالله وأنبيائه وملائكته هل طرق آذانهم مثله فى حياتهم ثم يقول عن نفسه « سبحان المانح !

كم ترك الأول للآخر ! » ، فإذا مر بجناس أو تورية من صنعه وثب من موضعه وتمايل طرباً ، ثم ينظر للحاضرين ويقول لهم « اسمعوا من الفتى العربى اللعوب (كذا) تف على فلان (الشاعر القديم ولا نذكر اسمه احتراماً له) وسحقا له ! أين له هذه السلاسة والسهولة»، وقد حار فيه معاصرون فقال أحد أعلامهم : إن أبا الفرج عندى مشكلة من المشاكل لا أدرى أهو ثقيل أم ظريف .

والحقيقة أنه رجل عادى جعله سوء الحظ ثقيلاً فحاول التظرف المصطنع ليقاوم فعل الأقدار به مجتهدا .

وكان فى ذلك مقلداً بدون علم لأحد أبناء المنجم الذين ذكرهم الثعالبى فى اليتيمة وأورد فصولا للصاحب بن عباد فى وصفهم .

وكان هذا الأديب يعلم حق العلم أنه يمثل دوراً صعب المراس ويعلم مقاصد ناقديه أو المعجبين به ، فكان مثلًا يزعم أنه من نسل أبى الفرج الجوزى وأبى الفرج الأصبهانى لمجرد كنيته ، فلما قال له أحدهم أنت من نسل أبى الفرج الببغاء قال : أى نعم وهو الواقع ! ولا شك فى أنه كان يعلم قصد محدثه فى أمر نسبه إلا أنه كان يخرجه مخرج الجد حتى مع أخص الناس به ويغضب ممن ينكر عليه ، ومات هذا المسكين فى العقد الأول من القرن ١٤هـ فجأة من

من كثرة الهموم بعد أن جمع له أغنياء البلاد مبلغا اشترى به عقاراً ورمّم داره .

هذا مفلوك أمكنه أن يحول تيار فلاكته بالإضحاك على نفسه حتى أشكل أمره على العالم الذى أصاب كبد الحقيقة بسؤاله هل هو ظريف أم ثقيل ، والواقع أنه وأشباهه فى حالة حيرة ودهشة ولذا تراهم حيناً ينصحون بطلب المجد والثروة وطوراً يأمرون بالقناعة ويذمون الأيام ويتضجرون .

ولعل هؤلاء الأدباء أنفسهم هم الذين جعلو للحظ تلك المكانة في تصريف أمورهم ، وهم الذين حاروا فى تعليل الاختلاف ونصحوا بالقناعة والرضى بالمجد المعنوى دون المجد المادى ، وهم الذين وصفوا الدنيا بالغرور والخداع والغدر « أنظر أشعار المعرى فى هذا المعنى فى لزوم مالا يلزم » واسمع الى قول القائل فى إقبال الدنيا وإدبارها :

فتكسبه إن أقبلت حسن غيره

وتسلبه إن أدبرت حسن نفسه

ألا ترى فى شعر شوقى أثراً من هذا المعنى حين يقول :

إذا آخت الجوهرى الحظوظ

كفلن اليتيم له فى الصدف

وإن أعرضت عنه لم يحل فى

عيون الخرائد غير الخزف

والدنيا فى الشعر القديم هى « الـ « حظوظ » فى الجديد ٠

وعن القناعة يقول أحدهم :

ولقد أضم إلىَّ فضل قناعتى

وأبيت مشتملا بها متزملا

وأرى العدوَّ على الخصاصة شارة

تصف الغنى فيخالنى متمولا

وإذا امرؤ أفنى الليالى حيرة

وأمانياً أفنيتهنَّ توكلا

ومن فخرهم فى الصبر على الشدائد :

عجبت سعاد من ارتياحى للعلا

فى العدم وهو يفلّ غرب الجامح

لايغشنى الإقتار عاراً إننى

رحب الذراع بكل خطب فادح

وربمـــا نهـــض المقـــل بعبئـــه

وحبابه المثـــرون حبـــو الـــرازح

ومـــن سخافـــة بعضـهـــم قوله :

شغلنا بكسب العلم عن مكسب الغنى

وصـار لنـا حظ من العلـم والفقر !!

ومن المرضى بالغرور وداء الفخامـة :

وقالوا توصل بالخضوع الى الغنى

وما علموا أن الخضوع هو الفقـر

وبينى وبين المـال شتـان حرمـا

علىّ الغنى نفسى الأبيّـة والدهـر

إذا قيل هذا اليسر أبصـرت دونـه

مواقف خير من وقوفى بها العسر

ومن شعر لصالح بن عبد القدوس :

المرء يجمـع والزمـان يفـرق .

ويظـل يرقـع والخطـوب تمـزق

ما الناس إلا عامـلان فعامـل

قـد مـات مـن عطش وآخر يغرق

والناس فى طلب المعاش وإنما

بالجد يرزق منهـم من يـرزق

لو يرزقون على وزان عقولهـم

ألفيت أكثر من ترى يتصـدق

أحب أن أعلم ما الذى غرس فى أذهان هؤلاء الفضلاء حقارة الغنى حتى مع الجهل وجلالة الفقر مع العلم ، ولم لا تجتمع فضيلتان وهما الغنى والعلم وتلتصق مصيبتان وهما الجهل والفقر ، ومن الذى أوعز إليهم أن ينظموا الأشعار ويؤلفوا الحكم فى وصف حالتهم وتعليل الرضى بها ، وكان كثير من أدباء العرب فى حالة غنى ورفاهية كالصاحب بن عباد وعبد الحميد الكاتب وابن المقفع وبديع الزمان والمتنبى والجاحظ . ولو أن بعضهم عاش الى هذا العصر لرأى ما وصل إليه الأدباء والعلماء فى أوروبا وأمريكا وآسيا من الجاه والمال وتفتح أبواب الخير فى وجوههم ووصول كثير منهم الى أعلى مناصب الدولة مثل إدوار هريو فى فرنسا وويلسون فى أمريكا وهالدين وبلفور فى انجلترا وتاغور فى الهند .

إن أدباء الشرق مصابون بداء معروف عند علماء النفس وهو « إنهيبسيون » Inhibition وهو ظاهرة عصبية تقلل من قدرة

الإقدام فى جزء من الكيان الانسانى أو تعدمها بتاتاً ، ويخلط الناس بينها وبين الخجل والحياء والتردد كقول الشاعر :

حيائى حافظ لى ماء وجهى

ورفقى فى مطالبتى رفيقى

ولو أنى سمحت ببذل وجهى

لكنت الى الغنى سهل طريقى

ويقول حافظ ابراهيم :

« لا تخلق أديم وجهى »

ويرى بعضهم فى التوسل باللين الى الغايات خضوعا لا يليق بكرامتهم ويرون أن هذا اللين هو الخضوع وأن الخضوع هو الفقر بعينه ، وترى بعضهم يقسم الناس قسمين ، القسم الأول من ذكرنا ووصفنا من أهل العلم المصحوب بالقلة والإعسار، والثانى أهل الغنى ومعظمهم جهول ، وأهل الغنى بمعزل عن هؤلاء وعن العناء فيهم بألف معزل قد أغناهم الفعل عن القول وفضول المال عن فضول الحاجة والأعذار عن الاعتذار ، ويصور للأولين أن الآخرين فى غنى عنهم وليسوا بحاجة إليهم ، وهذا التصوير صادق الى حد ما ، صدق قديماً عندما كان العلماء والأدباء يرتزقون بالتقرب الى

أهل الغنى والجاه كما فعل الشعراء بالمديح والمفكرون بتأليف الكتب للأمراء والوزراء ، ولكن أوروبا كسرت هذه القيود عندما ظهرت الطباعة ونشأت فئة الناشرين وأصبحوا يخطبون مودة المؤلفين والشعراء ، فكتب جولد سميث يقول « الآن يحق لنا أن نعيش ونتدلل فقد أصبح لنا قراء يطلبون أدبنا ويتوسط بيننا وبينهم الطابعون والناشرون » .

وكانت الحكومات بعد الأمراء تهب النابهين مرتبات شهرية (الدكتور جونسون فى انجلترا) وقلدهم الشرق فصارت الحكومة العثمانية فى عهد السلاطين تمنح العلماء مناصب ومرتبات ، وكثير من أدباء مصر نالوا مالاً على هذه الطريقة كالمرحومين عبدالله نديم وإبراهيم المويلحى وقبلهما السيد جمال الدين الأفغانى وكان فى مصر يتقاضى مرتباً من وزارة رياض باشا ،ولما كثر عدد هؤلاء الأدباء والعلماء ، غلت الحكومات أيديها وأشفقت أن تكون فريسة للأدعياء ولكنها لم تمنع رفدها أبداً عن أمثال أحمد فارس الشدياق الذى نال حظوة فى تونس وفى دار الخلافة وفى مصر ، ولكن كلّ هذه المعاشات والإعانات والمكافآت كانت عليها صبغة المذلة لأنها تدفع فى الظاهر بغير مقابل ، وكأن الخطاط أو النساخ أو الغبى

الذى ينقل نقل مسطرة ويتقن زر ثوبه وتنظيف حذائه وهو موظف كتابى أحق بالحياة من العالم أو الفيلسوف أو الشاعر المثقف ، وحتى وظيفة حافظ إبراهيم بدار الكتب كانت عليها صبغة المنحة وقد تشدق المخرقون والجهلاء بأنها وسيلة للارتزاق ليستريح الشاعر من القلق على قوته ، كأن فى دار الكتب أو غيرها كثير من أمثال حافظ فى أدبه وتبحره وأسلوبه ووطنيته ويحسبون أنه ظفر بالوظيفة لا أن الوظيفة ظفرت به وتشرفت ، وما صنعها ناظر المعارف فى ذلك الحين إلا تقليداً لحكومة فرنسا التى كانت تعيّن كبار الأدباء أمناء ومديرين لدور كتب الحكومة صيانة لهم من التبذل فى معاملة الصحف الفرنسية ، على مابينها وبين الصحف المصرية من الفروق ، وعندما نضب معين محمد توفيق الزجال الرقيق فتح حانة ، وآخر جمعوا له وفتحوا له « مطعم فول » ضاربين صفحاً عن علمه وأدبه ومحتمين عليه أن يعيش بجمع المليمات فى فجر كل يوم، فلما أفلس غيظاً قالوا « فلان لايصلح للأعمال الحرة » .

على هذه الوضعية الذهنية قال الشاعر القديم :

أهل المناصب فى الدنيا ورفعتها

أهل الفضائل محقورون بينهم

قـد أنزلونـا لأنـا غيـر جنسهـم

منازل الوحش فى الإهمال عندهم

فليتنـــا لو قدرنـــا أن نعـرّفهـــم

مقدارهم عندنـا أو لـو دروه هـــم

لهم مريحان من جهـل وفرط غنـى

وعندنـــا المتعبـان العلـم والـــعدم

انظر الى قـوله « غيـر جنسـهم » لقـد اسـتبـان أن الجـاهل والغنى الغبى يرى العـالم والنابغ أنه غـيره ومن طينة غير طينته ، ولذا فـهو يخشاه ويحقـد عليه ويشمت به ويسره أن يراه فى حاجة مطلقة اليه وإلى غيره من أهل نوعه .

وبذا وجدت الهوة السحيقة بين الفريقين ، فواحد يعتبر العالم وحشـاً والعـالم لم يتـعـفف عن الاتصـال به وهمـا فى حـاجـة الى بعضـهمـا بعضـاً حتى الحكومات بعد الأمـراء تتقـرب الى العـالم والمصلح لأن فـيها حـتمـا رجلاً أو رجلين يعلمان حق العلم أن هذا العالم أو الفيلسوف قد يكون كالطفل فى علاقته بالمادة ، وقد يكون فى حاجة الى من يقوم بنفقاته ويسدّد ديونه ويتعهده كما رأينا فى حياة ذلك الأديب الأنجليزى الذى كـان يحسن كل شىء مـن فنون

العقل والأدب والحكمة والتصوف إلا فن الحياة فلا يدرى فيه شيئاً .

وقد يكون الحاكم الجاهل حاسداً للنابغ كما يكون الغنى الغبى عدواً للنبيه النابه ، سمعت رجلا ذا مال عظيم يقول لأديب رقيق الحال يكسب قوته بأدبه وعلمه « وددت لو أضيع كل مالى لأربح رزقى بمجهودى كما تفعل » .. وكان فى ذلك مخلصا فطناً ، ولكن لم أر عالماً ذكياً يتمنى فقد علمه وذكائه لقاء المال لأنه حينئذ لايجد عقلا يستمتع به فى إنفاقه ، وترى الأديب نفسه وذويه يتساءلون عن اجتماع الذكاء والمعرفة الى القلة المادية ، فيردد الشاعر هذه الحيرة وهذا التساؤل :

وقائلة ما بال مثلك خاملا
أأنت ضعيف الرأى أم أنت عاجز
فقلت لها ذنبى الى القوم أننى
لما لم يحوزوه من المجد حائز
وما فاتنى شىء سوى الحظ وحده
وأما المعالى فهى عندى غرائز

وقبله قال الزمخشرى :

كم عاقل عاقل ضاقت مذاهبه

وكم جاهل جاهل تلقاه مرزوقا

هذا الذى ترك الأوهام حائرة

وصير العالم النحرير زنديقا

ولكن المرأة صدقت فى سؤالها وجوابها .

إنه بلا ريب لا ضعيف الرأى ولا عاجز ولكنه جاهل بفنون الحياة التى تتطور بتطور الزمان ، وهى كتلة ضخمة من الاستعداد الفطرى والقدرة على اللف والدوران والتحايل والتصنع لو أتقنها العالم والأديب فإما ذهبت بمواهبه وإما أوقعته فى الورطات وذلك فى الجماعات المتأخرة ولدى أنصاف المتمدنين كمعظم الشرقيين .

ولكن كثيرا من أهل المواهب يضحون بالمواهب فى سبيل النجاح المادى أو ما يسمونه كذلك عندما يتأكدون أن تلك المواهب لا قيمة لها عند أقوامهم .

جاء المرحومان فرح أنطون وإسحق باسيلى فى مركب واحدة من طرابلس الشام فى طلب المجد والمال فى مصر وقد تخرجا من

مدرسة واحدة واشتغلا فعلا بالأدب فى مدينة الاسكندرية ، وقد ذكر هذا الحديث كلاهما الأول فى سنة ١٩١١ فى باريس والثانى فى مصر سنة ١٩٣٥ وانغمس فرح فى معاجمه وقواميسه ومراجعه وألف فى الفلسفة والأدب والتاريخ والاجتماع واشتهر ثم بدأت المادة تخونه فلم يقو المرحوم باسيلى على تيار الكفاح العلمى واشتغل بالتجارة وافترقت الطرق فمات فرح سنة ١٩٢٢ فى حالة الأديب الذى أدركته الحرفة ، ومات باسيلى صاحب ملايين سنة ١٩٤٠ ، سافر فرح أنطون الى أمريكا وسوريا وشمال افريقيا فى سبيل الربح من الفنون الجميلة وعاد مخفقاً فى كل مرة، وسافر باسيلى الى الروسيا والسويد وبولونيا فى سبيل الخشب وعاد رابحاً فى كل مرة .

كم سفرة نفعت وأخرى مثلها

ضرت ويكتدح الحريص ويخفق

على أن أسفار المأسوف عليه فرح أنطون فى مشارق الأرض ومغاربها لم تفده مالاً ولا خبرة ، فقد بقى طول حياته سليم الفطرة طيب القلب رضى النفس متحمساً للحق مدافعاً عن مبادئه ، ولم

يضمر عداء لأحد حتى للذين أخلوا به فى أحرج مواقف الحياة ، فكان يلتمس لهم الأعذار ويضفى على غدرهم ثوباً من الصفح والتسامح ، وكان كريماً حتي التبذير ، سخياً بروحه ، وفياً لذويه وأصدقائه ، يبدد ماله ويحرص على مال غيره ، وترك مؤلفات حسنة وكان له أفضل الأثر فى فتح أعين الشرق العربى الى إحياء الفلسفة الإسلامية والى الاتجاهات الجديدة نحو التحرر من قيود التقاليد القديمة ، وله قصص ومسرحيات وصحف ومجلات وكتب جيدة فى التاريخ والأدب والحكمة ومات فى الخمسين من عمره ولم يعقب نسلا لأنه لم يتزوج فى حياته مع أنه كان فى شبابه زين الشباب جمالا ورجولة وفضلا .

(٦) حكمــــة الجـــوع !

من المنتسبين الى الأدب فى مصر رجال فضلاء يشبهون المرحوم شوقى بك فى تفجعهم على المصابين بحوادث الدهر ، وقد كتب أحد هؤلاء نبذة مؤثرة عن الطلبة الغرباء الذين انقطعت بهم وسائل العيش بسبب الحرب العالمية ، وقد أراد أن يعبر عن شعوره نحوهم فهنأهم بهذا الجوع الذى يكابدونه بصبر وجلد ، وامتدح الجوع أو الصوم الإجبارى لأنه خير مهذب للقلوب النافرة والنفوس

الثائرة والعقول الجامحة(1) ، ولكنه لم يذكــر لنا أن قلوب هؤلاء الطلاب أو نفوسهم أو عقولهم كانت على شيء قليل أو كثير من النفور أو الثورة أو الجموح . ثم انتقل الى نفسه فقال :

---

(1) من الأعماق

حكمة الجوع

هنيئاً لهؤلاء الطلبة الغرباء ، هذا الجوع الذى يكابدونه بصبر وجلد . ذلك لأن احتمال الآلام رياضة عالية للرجولة واختبار لمعادن النفوس لأن الجوع خير مهذب فهو يرد الى القلوب النافرة استقرارها والى النفوس الثائرة هدوءها والى العقول الجامحة صوابها ، بل هو الملاك الطاهر الذى يطرق بقبضة يده القوية أبواب القلوب الموصدة ، لينفذ الى أعماقها الرحمة والحنان .

ما أحوج العالم الى الرحمة فى هذا العصر الذى يكاد الناس فيه يعبدون المال عبادة الأوثان . ما أحوجه الى رجل رحيم ينظر الى ذلك الفقير الذى أكل البؤس لحمه ، ولم يغادر منه غير بشرة رقيقة كزجاجة الرسام تفصح عما وراءها من أضالع واهية وعروق هشة وشرايين يتعثر الدم فيها إبطاء وضعفا ، وقد حل الشحوب من جسمه ووجهه محل النضارة حتى لكأنما الفقير قد خلق من معدن الأرض الخسيس وخلق الغنى من معادن سماوية مزدانة بياقوتها وزمردها .

لن أنسى خلال دراستى فى انجلترا تلك الأيام الثلاثة السود التى مكثت فيها جائعا لنفاد النقود . لن أنسى حينما كنت أمشى على قدمى المسافات الطويلة باحثا عن بائع للخبز القديم الرخيص لأقتات به .

من ذلك الوقت شعرت بحب الفقير بل آمنت إيماناً راسخاً بأن حب الفقير هو السر الذى أودعه الله فى القلوب ، وبأنه دين الانسانية جميعا . بل دستور الله المقدس وقانونه للعالمين .

كامل بولس حنا

(جريدة الأهرام فى ٢٢ أغسطس سنة ١٩٤٠)

«لن أنسى (يعنى طول حياته) تلك الأيام الثلاثة السود التى مكثت فيها جائعاً لنفاد النقود ، لن أنسى حينما كنت أمشى على قدمى المسافات الطويلة باحثاً عن بائع الخبز القديم الرخيص لأقتات به » فهو الذى يصف الجوع بأنه ملاك طاهر ينعى الأيام الثلاثة التى زاره أثناءها ذلك الملاك . ونحن لا نشك فى روايته وقد قيل لنا إنه رجل مثقف وكثير الغنى . وإن كنا نعلم بقوله أنه لم يجع تماما لأنه كان يملك ثمن الخبز «الرجوع» الذى يسميه قديما » .

وإن كنا نعتقد أنه منذ عشرين أو ثلاثين عاما عندما كان هذا الفاضل طالباً فى إحدى جامعات انجلترا كأكسفورد أو كامبردج أو لندن التى يقصد إليها أولاد الأعيان أمثاله لم يكن يستطيع طالب فى حالته أن يجوع ثلاث ساعات فضلا عن ثلاثة أيام حتى ولو أراد، لأن طعامه وشرابه ومسكنه وسائر حاجاته مضمونة ثابتة مستقرة ، ولأن الثقة التى يتمتع بها الطلاب الغرباء أمثاله فى بلاد أوروبا بصفة عامة وفى انجلترا بصفة خاصة كفيلة بسد حاجة غرباء الطلاب قرضاً حسنا .

ولا شك فى أن أبناء الأعيان أمثاله لايعدمون قيمة الرسالة البرقية التى يكون جوابها مئات الجنيهات فضلا عن العشرات .

ولكن هذا الحديث وأمثاله إنما يدون للتندر والاستشهاد والتذكير بأنه كان من المكتتبين لإعانة هؤلاء الطلاب وهو مما يشكر عليه لأنه لم يكتف بالتفجع كالشعراء وندب حظ الأدباء وفتية الصحافة والنصح لهم بالرضى بالقناعة والكفاف كما فعل شوقى .

(٧) الشاعر العراقى عبد المحسن الكاظمى

من الشخصيات الأدبية التى عانت معاناة أليمة فى مصر المرحوم عبد المحسن الكاظمى الذى ورد مصر فى ١٨٩٩ وتوفى فيها سنة ١٩٣٥ وتقلبت به الأحوال تقلباً نادر المثال ، عندما أقبل على مصر وكان فى العقد الرابع فاستقبل وادى النيل بقصيدة عينية رائعة نشرتها جريدة المؤيد ورحبت به ولم يزد المصريون على ذلك شيئاً . وكان الرجل يحمل معه جواهر موروثة ومكتسبة أخذ يتصرف فيها بالبيع والإنفاق من أثمانها ، وقد سعى إليه الشعراء والأدباء فأفادوا منه وكان فى مقدمة أصدقائه المرحوم محمد حافظ إبراهيم الذى كان هو أيضاً مغموراً مطموراً ، فلما تعارفا وكان حافظ شارعاً فى نشر ديوانه فقرظه الكاظمى بقصيدة رائعة نظمها

ارتجالا كان يمليها الشاعر على صاحب الديوان وقد احتفظ الكاظمى بهذه الموهبة الى آخر عمره فكان يرتجل الشعر فى المواقف كلها . وكان شديد العفة كبير النفس لايبذل وجهه ولا يمد يده ولايمدح كبيراً ولا يلتمس معونة من أحد ، فلما نفد ماله قاسى أهوالاً شداداً خصوصاً بعد انتقال المرحوم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية الذى كان يعرف أقدار الرجال ولا سيما العلماء والأدباء سواء أكانوا مصريين أو شرقيين مقلبين على مصر التى يعدونها وطناً ثانياً لهم .

وأقام المرحوم الكاظمى فى سنة ١٩٠٥ أو فى سنة ١٩٠٦ فى مسكن صغير وأصابه مرض خطير أفقده بصره مؤقتاً وانقطع أصحابه عن زيارته والسؤال عنه ولاسيما رجل مخلص رافقه من الساعة الأولى اسمه محمد توفيق سورى الأصل مصرى الهجرة ، ولطف الله بالكاظمى فتحسنت أحواله فى العقد الأخير من عمره وتزوج منذ سنة ١٩١١ أو سنة ١٩١٢ ، وكان يشكو دائما من مكايدة بعض الشعراء المقدمين ووقوفهم حجر عثرة فى طريقه وعملهم على تعطيله عن نشر ديوانه والعمل بكل الوسائل على صرف الناس عنه وعدم اشتهاره عند الجمهور ، وكان أحد الشعراء

على الخصوص شديد الحسد له والحقد عليه بغير سبب سوى أن الكاظمى شاعر مطبوع موهوب شريف النسب عالى الهمة رفيع النفس وكانت هذه الصفات بذاتها سبباً فى تبغيضه إليهم ، ولم يكن هناك بينه وبين هذا الشاعر عداوة ولا منافسة ولكن الشاعر المخاصم كان شديد الغيرة من كل شاعر سواء أكان مصرياً أو ضيفا ، ولم يكن فى قلبه شىء من الشفقة أو الأريحية على ذلك الغريب المنفرد اللاجىء . وقد أعان هذا الشاعر المعادى على إلحاق الأذى بالشاعر العراقى كثير من أخلاق الكاظمى ، فقد كان مصاباً بداء الخجل الشديد والامتناع عن العمل لمصلحته والترفع عن كل وسيلة تشتم منها حاجته أو اضطراره حتى ليفضلن الموت على مايظنه خطأ نزولاً عن مكانته ، ولعله ككثير من النوابغ وأصحاب المواهب لايعرف من فنون الحياة شيئاً ويجعل المعانى السامية فى نظره حجاباً بينه وبين قضاء حوائجه ، وينتظر من الناس أموراً لم يعرفها الناس فى المشرق العربى ، الأول أن يعرف الناس قدره ، والثانى أن يبادروا الى تمجيده وتنمية مواهبه بالإقبال والمعونة ، ولكن الناس هنا فى مصر لايعرفون شيئاً من هذا حتى لأخص نوابغهم وأخلص خدّامهم .

فلو كان أحمد شوقي على خصاصة ولو لم يكن متصلا بقصر الملك لما عرفوه ولا سألوا عنه ولما اتجه في نظمه ذلك الإتجاه. والناس في مصر لم يتغيروا عن زمن المتنبي أي منذ ألف سنة ومنذ ألف سنة كانت العلوم العربية في ضحاها وروعتها وشبابها وكذلك الآداب ومكارم الأخلاق المستفادة من الإسلام ، ومع ذلك مازال ذلك الرجل العظيم أبو الطيب المتنبي يطوف مشارق العالم العربي ومغاربه في سبيل الرزق والكرامة حتى حط رحاله بمصر ، ولم يكن للرأي العام قوة كالتي صارت له في أوائل القرن العشرين ، فالتجأ مضطراً الى الرقيق الزنجي الذي شاءت الأقدار أن تسلمه زمام الملك في أرض مصر ، واضطر أبو الطيب أن يمتدحه وينظم القصائد الطوال في الثناء عليه وتعليل سواد لونه وسؤدده على بلاد الترك ، الى أن قطع الأمل من رفده ففرَّ بليل وشفى نفسه بهجائه والاستغفار من محنة مدحه .

وبعد ذلك بألف سنة جاء عبد المحسن الكاظمي الى مصر ، وإن لم يكن من طبقة المتنبي إلا أنه لم يكن يقل عنه جاهاً وحسباً وعلماً وأدباً وعفة وترفعاً ورجولة . وكان على عرش مصر أمير يقرب الشعراء ويجيز الأدباء ويتخير بعضهم بطانة كما فعل أبوه

وجده من قبله وفيها فطاحل من رجال العلم والمال والسياسة والفقه والأدب والصحافة ، وفى فترة كانت فيها نصرة الجامعة الاسلامية والنهضة العربية ومع ذلك لم يلتفت الى الرجل واحد منهم ولم يبادروا الى نصرته ولم ينتفعوا بأدبه وأخلاقه ولم يحسبوا حساب هجرة مصرى الى العراق فيلقى فيها مايلقى الكاظمى فى وادى النيل ، وكان الرجل لبقا فقد مدح مصر وأهلها عندما وطئت قدمه أرضها بدلاً من أن يمدح ملكاً أو أميراً لأنه يعلم أن الأحوال تغيرت وصار للأمم فى العصر الحديث ماكان للملوك والأمراء فى سالف الأزمان .

وعندما استقرت به النوى حذروه فى خبث وكيد أن لايمتدح أمير البلاد لأن امتداحه وقف على أشخاص معينين ، فنفر الرجل بطبعه من الارتماء على هذا الباب أو الدنو منه ضناً بكرامته وتهمة المزاحمة ، ولم يكن هؤلاء الشعراء من البطانة رجال مروة أو نجدة أو قانعين بوظائفهم التى تدر عليهم المال ولا بالأعمال الخفية والمساعى الغامضة التى أمطرتهم ذهبا ، بل طمعوا أيضا فى الاستئثار بالأمير سواء فى السياسة أو الإدارة أو الأدب . وقد فطن الأمير نفسه أن تشجيع شعراء أو أدباء آخرين يوغر صدور

هؤلاء ويشعل نيران الحقد فى قلوبهم وقد يكيدون له عند خصومه ، وبذا تمكنوا من ضرب نطاق وحصار على القصر وعلى قلب الأمير وفكره ، وعاشت الإمارة فى القرن العشرين الى سنة ١٩١٤ كأى بلاط ملكى فى القرون الوسطى مصنعا للدسائس ومطبخاً للفتن ومصدرا للفضائح التى تنتجها أعمال البطانة ، والأمير منها برىء براءة الذئب من دم يوسف ، فقد كانوا هم أنفسهم يخونون ويراؤون وينافقون ويطيعون كل هوى فى أفئدتهم حتى ضيّعوه ، وبعد ضياعه قلبوا له ظهر المجنّ ونالوا منه ولم يرثوا لحاله ، ليس هذا كل شىء بل إنهم انضموا الى خصومه وتهربوا من لقائه ولو بالمصادفة فى الأقطار الأوروبية ، فى حين أن دسّوا عليه أقاربهم وأصهارهم ليسلبوه أموالاً باسم الإخلاص له والبقاء على الوفاء والولاء حتى بعد أن أصبحت هذه الأشياء كلمات لامعنى لها وأوهاماً لا تنطلى على طفل .

وفى وسط هذه المعمعة من بداية وصول عبد المحسن الكاظمى وهو غريب الوجه واليد واللسان وكريم النفس وحر الضمير عفيف الخلق يكاد يكون على الفطرة العربيه فأنّى له أن يخوض غمار هذه المعركة فى سبيل الشهرة والكسب بأدبه ، وقد ركب فى

طبيعته أنه لايكسب بأدبه ولو صلبوه وقطعوا أوصاله ، فلم يتصل بوزير أو أمير أو زعيم ، غير أنه لما كبرت كريمته المحفوظة بعناية الله رباب التى رزقها حوالى سنة ١٩١٦ فى أضيق الظروف وأشد الضنك نظمت الشعر الجيد وأنشدته فى بعض محافل الزعيم سعد زغلول ، وكان مجيئها فاتحة بصيص من الخير لأبيها ، وأراد الله أن يتم على يديها نشر ديوانه فى سنة ١٩٤٠ أى بعد خمس وثلاثين سنة من تحرك هذه الرغبة فى قلب والدها الراحل . فكان يحفظ منظوماته الرائعه فى صندوق من الصفيح ويندب حظه وكان وهو شبه ضرير يشعل مصباح الزيت بيده ويعّد طعامه ويقضى حوائجه، وقد قضى أحد الأدباء المعجبين به أياماً فى صحبته بمسكنه الصغير فى شارع الكحكيين فلم ير زائراً غيره ، ولما نطق الصديق المعجب بما يجول فى نفسه بعد الاستئذان والاستعطاف فى أن يخدم الشاعر خدمة مادية هاج وماج وثار أنفة واعتزازاً بكرامته ، فقد كاد إباؤه وشممه يكونان مرضاً مستعصياً وهذا مثل أعلى فى النبل تحرص عليه الأمم وتعالجه بالحكمة والمحبة .

ونشر ديوانه سنة ١٩٤٠ وقدم له بكلمة بليغة السيد مصطفى عبد الرازق وكانت بينهما علاقة طفيفة فيا حبذا لو كان السيد

مصطفى فى محنة الكاظمى وزير المعارف أو وزير الأوقاف . ولكن نظار المعارف والأوقاف فى عصره كانوا من أبعد الناس عن تقدير حقوق الأدب والضيافة ولو كانوا غير ذلك لبحثوا ونقبوا عنهم بمجهر وتفقّدوهم كما كان يفعل عمر بن الخطاب الذى لم يجد الاسلام بمثله .

قد يكون لمعترض أن يسأل لم لم يعمل الكاظمى عملاً دنيوياً يربح منه كالتجارة والزراعة والحياكة ؟ ... وهو سؤال لم يبق عجيباً فى هذا الزمن كما لم يكن غريباً فى صدر الاسلام حتى أن بعض الخلفاء مازالوا يزاولون أعمالهم بعد خلافتهم حتى نهاهم الخبراء بواجبات الملك وخدمة الرعية .

الجواب بسيط ، إن أدب الكاظمى نفسه كان عملاً منتجاً فإن الأمم لاتعيش بغير شعراء ومفكرين وكتاب وفنانين . وقد يستغرق أدب مثله كل وجوده ومشاعره وقواه المادية والمعنوية فليس هو وأمثاله بالعاطلين أو الكسالى أو المتواكلين ، والأمم التى لاتصل بوحى منها الى إعاشة أمثاله خاب فألها وخربت ضمائرها وتهدم بنيانها . أليس الشاعر المصرى يقول : وإنما الأمم الأخلاق مابقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا، ولمَ نقرأ مثل هذا الشعر الذى

يحفظه عشرون مليوناً ولا يعملون به ، وأمامهم رجال من ذوى تلك الأخلاق المنشودة لم يعيروهم لفتة كأنهم يظنون الأخلاق هنا «كصندوق العهد» الذى سلمه آدم الى شيث فأخفاه فى خزائن مجهولة لايصل إليها أحد الى يوم القيامة ! ..

وليت الشاعر النابغ قال لهم ماهى هذه الأخلاق التى إذا ذهبت ذهبت الأمم ولم يضر الإيجاز بشىء ضرره بهذا الشعر . ماهى تلك الأخلاق أيتها الأمة المصرية الكريمة ؟ والى من تقصدون عندما تقولون « ماعندناش أخلاق » ماهو هذا الإكسير ؟ ماحجر الفلاسفة الذى تسمونه أخلاقا ؟ وأنت أيها الطبيب المداوى أى علاج وصفت للمرضى بهذا الإيجاز المعجز ، وأى نموذج من الرجال قدمت لنا من فجر التاريخ الى الآن وضربت الأمثال بهم لتلك الأمة الراقدة العليلة ؟! قد يعتذر عن الشاعر بأنه يشير ولا يسهب وعلى علماء الأخلاق والاجتماع أن يشرحوا ويفسروا بالتطويل . ولكن أين هم ؟ وهل وجدوا وإن وجدوا هل تمكنوا من العيش والتعليم ؟ إن مجرد وجودهم داع لمحاربتهم والقضاء عليهم والأمثلة لدينا حاضرة ولا جزاء لهم إلا شفقة الشماته ، وأشد من ذلك ألماً وأعظم مصيبة إضافة النقائص الموهومة أو المكذوبة إليهم وهم منها براء ،

والسبب فى تخصيص أهل الفضل بإذاعة نقائصهم وعدم إقالتهم إياها والتلبيس والإفتراء عليهم مهما كانت محققة أو موهومة محتملة ، أن النفوس فى الشرق العربى ولاسيما فى مصر مجبولة على المساواة والمباهاة ولا تحب لغيرها تفوقاً عليها فمهما وجدت سبيلا للتنقيص من كمال الكاملين ولو تلبيساً مقبولا سلكته تنقيصاً للكمال وطلباً للمساواة بحساب الإمكان بخلاف الناقص فى نفسه فإنه لا حاجة الى تنقيصه .

وقد عاشرت الكاظمى أمداً فلم أجد إلا صفات الفضل والكرامة والعفة فضلا عن نبوغه الذى أوغر صدور أعدائه الذين أغروا به حتى أرباب الصحف ، فامتنع بعضهم عن نشر شعره رحمه الله رحمة واسعة ، فضلا عن تعطيل ديوانه فى وقت كان فيه الطبع والورق أرخص الأشياء وأضألها ثمناً وأقلها كلفة . كان الكاظمى يدرك ذلك كله ويعلم أسبابه ولا يرى له مخرجاً إلا الصبر وقد ضاقت به العراق وبرقت أشعة مصر فى خياله وأمامه مثل المتنبى ولكنه غامر :

يقيم الرجال الأغنياء بأرضهم

وترمى النوى بالمقترين المراميا

فوجد فى مصر مايجده أهل العقل والفضل والنباهة من الآلام العقلية التى تلزمهم وهى عذاب وحسرة وحيرة ، فلم تضعف أولئك من صلابة عوده وقوة احتماله وشدة صبره ولكنها بلا ريب عطلت كثيراً من مواهبه - وإن قيل إن الآلام تنضج المواهب - فقد روى عن حافظ إبراهيم أنه قال « اعطنى من الرفاهية مايسبح فيه فلان أو علان وانظر أى الشعر أنظم لك . ولو كان فلان أو علان فى موقفى انظر هل كان يجيد نظم شطرة ؟! » .

ولكن سير الفلك المدار لم يشأ حدوث إحدى هاتين التجربتين.

نحن لانملك أن نحكم على ماكان يستطيعه الكاظمى لو تغيرت ظروف حياته ، ولكن تقدم فنون النقد سمح للنقاد الغربيين أن يحكموا على الإنتاج الشعرى والفلسفى لرجال قضوا نحبهم فى مقتبل العمر أمثال جيو وأندريه شينيه ، كما حكم العرب على مستقبل ابن المقفع وبديع الزمان والشابى وأحمد العاصى والإنجليز على شيلى وكيتس وشاترتون وبروك وقديماً قال الشاعر العربى :

وإذا رأيت من الهلال نموه

أيقنت أن سيصير بدراً كاملا

وكما يكون الموت عائقاً حتمياً مطلقا عن الإنتاج ، كذلك يكون الموت المعنوى معطلا لمواهب الموهوبين بسبب تشوفهم وتشوقهم الى المكارم والمعالى ومد أعناقهم نحوها ، ولا شك أن الشوق الى المشوق مع عدمه وعدم التمكن من تحصيله وعدم الاشتغال بما يلهى عنه عذاب مذاب ، ولا شك أن عدم الحظ غطاء وستر على محاسن النابغ وكمالاته النفسية وأدواته ومعارفه حتى أن حاله تسرى الى نطقه وإنتاجه ومقاصده ، فإما يغفل عن محاسن كلامه ومقاصده ولا يعبأ بها ويعرض عنها ، وإما أن يصرف كلامه عن ظاهره بأوجه من التأويل ، وإما أن لايفهم مراده منه ، وإما أن يدّعى عليه غير مراده ، وإما أن يدعى فساد قصده .

وتطبيقاً لهذه القاعدة سمعنا بعض الناس يهمسون بعدم استحقاق هؤلاء المظلومين لعناية المخلصين فى محبتهم والإعجاب بهم ، وكان هذا من الثمار المريرة للزرع المسمم الذى غرسه أعداؤهم وبعض الناس لايدرى مايقول فيهرف ويهذى ، وبعضهم مأجور للأعداء وهم يعلمون أن كثيراً من أهل مصر لا تبلّ فى أفواههم فولة ولا قمحة ولا عدسة فيزعمون المزاعم .

سمعت شاعراً مصرياً شهيراً كان مغضوباً عليه من زعيم

أشهر فى منفاه يقول لرجل خفيف العقل لقد جن فلان (والعياذ بالله) جنوناً مطبقاً حتى قيدوه بالسلاسل . أرجوك لا تذيع هذا الخبر !! . فلما انصرف الرجل الخفيف العقل سألت الشاعر العظيم أحقاً ماتقول ؟ قال أبداً إنما أقول ما أتمنى . قلت ولم رجوت صاحبك أن لايذيع الخبر قال ليكون هذا أدعى الى شقشقة لسانه فينتشر الخبر ، بسرعة البرق . بهذه الوسائل وأمثالها وأخبث منها كانوا يحاربون الكاظمى وأمثاله . وغنى عن البيان أن الزعيم عندما عاد من منفاه كان الشاعر فى مقدمة الذين استقبلوه بقصائدهم الرنانة ، لأنه أصبح صاحب الحلّ والربط فصار بذلك معبوداً للشاعر وذويه[1] .

ومن عجيب أمور الكاظمى أنه لم يبتل قط بالنقائص النفسية التى قلما ينجو منها الأديب الغريب المحروم من الحظ كضيق العطن والنزق وفساد الطوية والنفاق والحقد والحسد والانتقام أو حب زوال النعم عن خصومه بعد أن تأكد عداوتهم من ألصق الناس بهم ، كالمرحوم الشيخ على يوسف الذى لم يخف عنه شيئ ولم تُسمع منه غيبة فى أحد ولا طعن فى عرض ولا غض من أقدارهم ولا غوص

---

(١) يبدو أن الشاعر هو أحمد شوقى والزعيم هو سعد زغلول .

على مساوىء خصومه أو عمل حيلة فى الاطلاع على عوراتهم .
وكان يتجنب هذه كلها طوال حياته وليس فى طبعه شيء منها مطلقاً حتى لو حاول الانغماس فيها .

سمعت صديقاً له يقول لو أظهر أنيابه وأظفاره وانتقع ببيانه فى النيل منهم لخافوا جانبه وتنحوا عن طريقه كما فعل فلان السُورى وفلان المغربى فإن هؤلاء يخشون ولا يستحون ، وليس هنا مجال التصريح بالأسماء والأعلام وسرد الحوادث فإنه من أخص فصول التاريخ الأدبى للواعين ، وقد أعطى التاريخ للكاظمى بعض حقه بعد موته على يد ابنته .

وبعد ... فقد يسأل البعض عن إسهابى فى دراسة الكاظمى وقد كان ضيفاً عراقيا ولم يكن مصرياً فأقول إن هذا المبحث غير قاصر على جنس بعينه أو على وطن خاص ، لأن الأدباء والمفكرين مواطنون فى العالم كله ومواهبهم وشخصياتهم ملك مشاع بين الأمم كلها حتى ولو كانوا لاينطقون بألسنتها . وقد يكون الكاظمى – وهذا من عجيب المصادفات – أقرب الى مصر منْ غيره من أدباء العربية ، وقد أشرت الى علاقته بالمرحوم سعد زغلول فى حياته ، لأن سعداً كان يحب المتصلين بالمرحوم الشيخ محمد

عبده ويعتبرهم إخوانه أو أبناءه فى الانتساب للإمام ، وقد بكى الكاظمى على سعد زغلول بقصيد رنان ملأ من ديوانه ست صفحات .

ويعتبر بعض الأدباء الكاظمىْ شاعراً مصرياً ولا عجب ، فقد عاش في مصر أكبر شطر من عمره وقد آوته ضفاف النيل أطول مما آوته ضفاف دجلة والفرات ، وذكر الرصافى ذلك عندما رثاه فقال :

فيا عجبا بكتك وأنت ميْت

بلاد ضيَّعتك وأنت حىّ

ولكن العراق لم تضيع الكاظمى ولكنه هو الذى لم يستطب الحياة هناك ، وقد كان نصيب الزهاوى أن قلد الكاظمى وأوى الى مصر أمداً ، ولكن روابط الزهاوى فى العراق كانت أقوى من روابط الكاظمى . أما الرصافى مد الله فى أجله فقد حماه وأنقذه نوع من القدرة على الكفاح والصمود للكوارث لاتقوى عليه أفئدة الشعراء جميعاً وهى القدرة التى كانت تعوز الكاظمى .

فالرصافى جرىء فى المطالبة بحقوقه وشجاع فى إلزام

الناس بتقديره واحترامه وصريح لدى الوقوف أمام الكبراء حتى ولو كانوا ملوكاً وأمراء ، ولعل هذا راجع الى اشتغاله بالسياسة من بداية أمره ، فقد سافر فى شبابه الى مقر الخلافة العثمانية وخالط الوزراء والكبراء وتفتحت عيناه الى مواطن القوة والضعف من الأمم، ، فنزعت التجارب جراثيم الخوف والخجل من ثنايا صدره وعرف كيف يواجه الحوادث والرجال ، وكان الكاظمى خلواً من كل هذا ، وفى الوقت الذى أخذ الرصافى سمته الى اصطمبول ليحظى فيها بألوان من السعادة ، ولا عجب فقد كانوا يصفونها بدار السعادة "Porte de felicité" كان الكاظمى آخذاً سمته الى مصر التى كانت فى نظره دار السعادة العقلية فأضرت به الرحلة ولم يتذوق إحدى السعادتين .

وهناك ناحية ذات شأن جليل فى حياة الكاظمى وهجرته من دجلة والفرات الى النيل ، وهى أنه كان أول رسول سلام وأدب وإخاء وألفة واتحاد بين العراق العربى ومصر فى العهد الذى كانت فيه العراق ولاية عثمانية ومصر « محمية مقنَّعة » وقد أخبرنى أنه كان ولفيفاً من أذكياء العراق يسايرون ويتتبعون الحوادث المصرية

بيقظة لا نظير لها ويرنون إليها كما يرنو الموسويون الى أرض الميعاد ، وصاروا كلما تقدمت الأيام يلتفتون الى مصر التفاتة التشوف العارم الى مصير الشرق العربى ، وكان بلاؤه قد استفحل بأهوال العبودية ، وإلى مصير الأدب العربى وقد أدركته الكهولة المشوبة بالخنوثة على أيدى الشعراء أهل الطراوة والكتاب المرتزقين المذبذبين ذوى الأغراض ٠ لم يكن فى وسع شاب عراقى يهوى مصر والنيل ويود التعاون فى إنهاض الأدب العربى بقادر على الهجرة إلينا فى فجر القرن العشرين ، ولذا تعدّ هجرة الكاظمى عملا مجيداً لم يلق جزاءه وصوتاً سامياً لم يتردد له صدى إلا فى بعض الأفئدة ، وها هى الحوادث والأيام تؤيد فراسة الكاظمى وتثبت صحة رأيه فقد تحررت العراق وتحررت مصر وارتبطت الدولتان منذ عشرين عاماً بروابط الإخاء والمودة وتبادل الثقافة والتعليم والأساتيذ والتلاميذ وصارت لكل منهما سفارة أو وزارة ، وفى السادة الكبراء نسب ومصاهرة وكانت مصر ملتقى ملك العراق ووزرائها ، فماذا أفاد الكاظمى قبل موته وهو السفير الأول والرسول الأول لم يقصد الى مصر بقصد التجارة أو الكسب ولكن

لأجل المثل العليا ، فكان نصيبه الإهمال والنسيان من الدولتين إلا بعد موته حتى قذف الرصافي بلاده بتلك العلة الدفينة التى استفحلت واستنسرت وضحت بعظماء الأفراد فى سبيل صغار الشهوات فى موكب حاشد من الجهل والغفلة وأغوال الأحقاد والشماته واللؤم والمكايد :

فيا عجباً بكتك وأنت ميت

بلاد ضيعتك وأنت حي

ويا عجباً ضيّعته حياً بلاد لجأ إليها واستوطنهاواستقبلها فرحا مستبشراً وقطع فى سبيل الوصول اليها خمسين يوماً على ظهور الإبل وعلى متن البحار ، فدفنته وهو مملوء بالحياة وشيعت جنازته وقلبه نابض بالأمل وقضت عليه ومازالت الدماء تجرى فى عروقه .

(٨) أصحاب المواهب العقلية

يتحدث المتحدثون ويكتب الكاتبون في التفريق بين ذوى المواهب العقلية ، فيقسمونهم الى فيلسوف وكاتب وشاعر وخطيب وعالم . وفى الحق إنه تقسيم تعسفى ، لأن هؤلاء الموهوبين جميعا يعمدون الى طريقة واحدة في التعبير عن أفكارهم وهى الكلمة ، الكلمة في الحديث والحوار كما فعل سقراط ، والكلمة فى الخطابة كما صنع قس بن ساعده وبركليس وأبو بكر الصديق ، والكلمة فى الدرس كما كان يفعل أرسطو وأفلاطون وحسن البصرى وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ، والكلمة المكتوبة المخطوطة أولاً والمطبوعة أخيراً كالجاحظ وأبى الفرج الأصبهانى وابن المقفع وبرجسون وأناطول فرانس وأوسكار وايلد ، والكلمة المنظومة كما فعل المعرى ودانتى والمتنبى والبحترى وشوقى . فوسيلة التعبير عن الروح والنفس والعقل والذهن واحدة ، ولكن ألوانها مختلفة ودوائر التفكير تختلف ولا فرق هناك بين الحكيم والشاعر والكاتب والخطيب ، ففى أسواق البيع والشراء التى تقام فى الحواضر والبوادى تجد باعة الخزف والمصوغ والأنعام والخضر والفواكه والملابس والأحذية والبقول والكتب والجلود ، وبعضهم يتوسط

السوق والبعض يجلس فى جوانب السوق ، وبجانب العطار الذى يعرض قوارير العطر والروائح الزكية يقف على مقربة منه بائع الطيور والسمك واللحم والبصل والثوم والعسل ، كل هؤلاء باعة وتجار يعرضون بضاعتهم . وكذلك كل الذين ذكرنا من أصحاب المواهب يعرضون بضاعتهم ولكن كلهم بائع وعارض . فبيدبا الفيلسوف الهندى يعرض الحكمة فى العدل والمساواة والإحسان للشعب ، وفردريك نيتشه الألمانى يعرض ثورته وسخطه على الحياة الحاضرة ويقذف بسهام نقده النظم والعقائد المعاصرة ويشرح رأيه فى صورة الحياة للمستقبل ، وداروين ينادى بقدرة الطبيعة على الخلق والتكوين عن طريق الترقى والنشوء والتحول والتطور .

وما يصدق فى الحكم على أحدهم يصدق على غيره بشرط أن يكون فنّ التعبير عن أفكارهم هوى متحكماً فى نفوسهم وغالباً على مشاعرهم بجانب أعمالهم التى يرتزقون بها ، وقد تقوى الملكات العقلية فينقطعون لها ، ومازال لفيف من علماء العرب يحملون أسماء صناعتهم أو صناعة آبائهم كالطباخ والصائغ والغزال والحلاج والحريرى والمدرس ، وفى أوروبا يحتفظ التاريخ

الأدبى بحقيقة صناعتهم ، فقد كان سباينوزا صانعاً للعدسات وروسو نساخاً موسيقياً ودوهاميل طبيباً ، ومعظمهم اشتغلوا بصناعة التعليم أمثال أوجست كومت وأناطول فرانس وإرنست رينان ، وكان شكسبير وموليير وجيترى من رجال التمثيل ، وكان إيصوب رقيقاً زنجياً ويتمايز كل واحد منهم بقوة الذاكرة وهى شرط أساسى ، وسرعة الحفظ كما ذكروا عن ابن سينا والمعرى ، وسمو العقل وترفعه عن سفساف الأمور التى تنزل بصاحبها إلى الحضيض ورقة الجانب لأنها تحببه إلى الناس وتدعوهم إلى الإقبال عليه ، وقد تزداد هذه الخلة فتصير جاذبية شخصية عظيمة كالتى وصف بها سقراط وجمال الدين وأوسكار وايلد وأبو نواس ، ويضاف الى تلك الصفات أن يكون الرجل محباً للعدل والعفة والاستقامة ، جلداً صبوراً ثابت الجنان بعيداً عن مغريات المال والشهرة ، وقد يكون حذوراً من المخاطرة بحياته ليتمكن من أداء واجبه وتبليغ رسالته التى يلهمه إياها صوت باطنى ، وقد يعينه على إتمام عمله شعوره بحقارة البيئة التى يعيش فيها سواء أكانت دولة صغرى أو شعباً منحطا أو حكومة ظالمة ، وبقدر عظم الرجل تكون نظرته الى من حوله نظرة استصغار ، فقد كان نيتشه يحتقر

الألمان المعاصرين بصفة عامة ، ولكن شوبنهاور كان يشتم الفلاسفة والعلماء ويصفهم بأقبح الصفات ويقول لهم فى مواجهة قاسية ومجابهة أليمة أريد أن أعلمكم شيئاً وأنتم لاتعلمون ، وقد تكون الآلام الناشئة عن داء فى البدن أو شعور بدنو الأجل أو حرمان دائم دافعاً أقوى للتعبير أو محسناً للتعبير ، فعدم الرضى من العناصر الأولى فى إبراز المواهب ، لأن الرضى قاتل وقبول الأشياء على ماهى عليه قاتل . وأول النعم التى يعود بها عدم الرضى موهبة النقد الذى يؤدى الى التقدم ، النقد فى الأدب ، والنقد فى الحياة الاجتماعية ، نقد القائد الحربى لخطة عسكرية ونقد الصانع لصنعة غيره ونقد الفنان ونقد الاقتصاد ونقد العقائد ، وقد أوصلنا النقد الى ذكر الفنان وهو الآخر فى صف أرباب المواهب العقلية المميزة ، فليست الكلمة وحدها هى التى يتخذها العقل للتعبير عما يشعر بالحاجة الى التعبير عنه . فهناك أيضاً الموسيقار الذى يعبر بالأصوات التى يحكمها بالأنغام سواء أكانت الأصوات البشرية التى تنطق بها الأوتار أو المعادن أو النفخ فى المزمار أو الناى . وهناك الفنان بالتصوير والتمثيل ، فالمصور والمثال كلاهما يعبر عن أفكاره بالألوان والأشكال المحفورة فى

الأحجار والمعادن والأخشاب والعاج.

كل هؤلاء أسرة واحدة ، وإذا كانت الشخصية الموهوبة مكونة من العقل والإرادة ، فنصيب هؤلاء من قوة العقل مضاعفة ، ويتمايز هؤلاء بحب الاستطلاع وشهوة المعرفة وممارسة الأعمال العقلية بسرور يعدل سرور البخيل فى جمع المال والعاشق المحترف لدى الغزل ، ويتوج هذه الحالات المخالفة للعادة شعور الموهوب فى الأدب أو الحكمة أو الفن بخيبة الأمل فى الحياة الدنيا ، ويرى المتأمل أن هذا الشعور لايتأتى لأحد إلا لدقة الإحساس وحدة الذكاء وشدة التفكير ، مواهب باطنية وظروف خارجية موزعة توزيعاً دقيقاً ومقسمة تقسيماً نسبياً على طريقة خاصة ، مثلها مثل العناصر والعقاقير تنتج لوناً خاصاً من المواهب وتتخذ التعبير وسيلة للانتاج بالكلمة والصوت والمادة ، أى فرق بين تمثال من صنع ميكالانج كموسى أو زهرة ميلو أو المفكر لرودان وبين قصيدة للمتنبى أو خطبة للإمام على أو كتاب لارنست رينان أو محاورة سقراطية أو درس فى علم الاجتماع لسبنسر أو أوبرا من فاجنر ؟

لا شىء ولا فرق البتة ، إن كلا منها يحدث شعوراً بالجمال

والجلال والسرور ويضيف الى ذهن الناظر أو السامع نصيباً من المعرفة ، وكذلك الدور الذى يمثله مونيه سولى والدور الذى يغنيه عبده الحمولى والرقصة التى ترقصها أيزيدورا دنكان والنكتة التى يطلقها جورج برنارد شو ·

ولسنا فى حاجة الى تعريف شىء من هذه المواهب وأربابها فهى معروفة للكافة ، ولكن الذى يفرق بينها هو التقدير الكمى لا النوعى ، والميل الى ناحية أو شعاع من أشعة الطيف العقلى · إن الفلاسفة الذين اشتهروا فى العالم كانوا فى حقيقة حالهم كتاباً من الطبقة الأولى ، أما درجة التفكير فتختلف ، حتى الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين جاءوا برسالاتهم مكتوبة وهى تعد فى الطبقة الأولى ، وقد لجأ بعضهم الى الشعر والغناء كمزامير داود وحكمة سليمان وسفر أيوب وخطبة المسيح على الجبل ورسائل تلاميذه ، والتوراة نفسها أسفار تاريخ وأدب وأسرار عائلية وقصص من الحياة وتراجم ملوك وملاحم ، ومنها الى إلياذة هوميروس خطوة واحدة · فما قيمة مذهب داروين إن لم يدونه فى ثلاثة كتب ؟ وما قيمة تاريخ مصر إن لم نقرأه على الأحجار وفى سجلات البردى ؟ وما هى أديان الهنود والفرس إن لم تدون فى أوبانيشاد وافستا ؟

ومراثى زينوفون ومحاورات أفلاطون ودفاع سقراط ؟

وغاية الفروق أنك ترى فى بعض تلك الكتب البحث فى جواهر الأشياء وروحها ، وفى بعضها تعليل النتائج بأسبابها ، وفى بعضها محاولات للوصول الى الحكمة والفضيلة وإرشاد النفوس الى الخير المطلق وهو المثل الأعلى ، وفى بعضها محاولة موفقة أو غير موفقة فى حل ألغاز الكون أو تفسير الحياة الإنسانية وشرح غاياتها وتعليل الخلق والبحث عن وجود الخالق ٠ بعضهم يقنع بالنظر فى الجوهرة التى أمامه وتقديرها وفحصها ووصفها وبعضهم لايقنع إلا بالكشف عن المنجم الذى خرجت منه تلك الجوهرة وأصل تكوينها وتاريخ إخراجها ٠ والأول يعتقد أن الفحص عن الجزء وصول الى الكل ، والثانى يرى الكمال فى البلوغ الى المصدر الأول أو الاقتراب منه ما أمكن ٠

ولكن أليس الانسان هو الذى ترقى من الجهالة المطلقة الى الدين ومن الدين الى الفن ومن الفن الى العلم حتى وصل الى مايظنه الذروة فعاد من جديد الى الدين يبحث عن الروح وثبوت وجودها وخلودها ؟ لقد بدأ بالفلك وانتهى بالذرة والكهرب فلما اكتشف العلاقة بين النظم الشمسية ووحدتها فى الكون اللانهائى

وبين الذرة ، عاد أدراجه الى الروح التى انطوى فيها العالم الأكبر ، وفى هذا المزيج الأعظم تتساوى تعالم لأوتزه وكنونفوس وإلياذة هوميروس وشاهنامة الفردوسى ومؤلفات كوبرنيكوس وتتحد وتنتظم بلا صعوبة ولا مشقة ، ولا نقول إن الذى لايرى هذا الرأى جاهل أو عاجز ، ولكن نقول إنه حائر أو تائه ولابد للحائر أن يهتدى ولابد للتائه أن يعود الى مرفأه ٠

وكما أن فى الكون الذى نسميه سماء نظماً شمسية لها شموسها وأقمارها وسياراتها ومذنباتها وكواكبها ذات الأحجام المتفاوتة ، كذلك بين الموهوبين فى الأدب والفن والحكمة والشعر نظم إنسانية بعباقرتها ونوابغها وأواسط الناس فيها ، يظهرون فى فترات مختلفة ويتعاصرون ويتعاشرون ويتقاربون ويتنافرون مجبرين مسيرين رغم إرادتهم ٠ يوجد الرجل العظيم مثل سقراط وهو شمس فتحيط به أقمار كأرسطو وأفلاطون وزينوفون ، ويرسل الله نبياً كمحمد عليه الصلاة والسلام وهو شمس تحيط به شموس وأقمار وكواكب كأبى بكر وعمر وعثمان وعلى وبقية صحابته ، ألم يقل: أصحابى كالنجوم الزاهرة بأيهم اقتديتم اهتديتم ؟ ٠ عندما يحين الحين ويؤون الآوان تلقى طائفة من المخترعين وقد يعمل كل

منهم على حدة وانفراد ولكن أعمالهم تتفق فى منشأها ونتائجها كما حدث فى الكهرباء واللاسلكى والفونوغراف والتليفون ثم السيارة والطائرة ، ومثل تلك المجموعة الباهرة من أدباء القرون الثانى والثالث والرابع الهجرى ، ومثل تلك الجماعة البديعة من أدباء القرن التاسع عشر ولا سيما فى أواخره . إن مجرد استعراض أسمائهم فى فرنسا وانجلترا وألمانيا وإيطاليا ومصر وتركيا كفيل بتأييد نظريتنا . كل رسالة دينية ترمى الى تخليص الروح وإنقاذه من هموم الدنيا ومشاغلها وإشعاره بالمثل الأعلى الى هذه الغاية يرمى البوذى والمسيحى والمسلم ، والمظهر السامى لهؤلاء بعد الكتب المقدسة ورسالة الأنبياء حياة المتصوفين وكتبهم كمحى الدين بن عربى والحلاج والغزالى والشعرانى والسهروردى والقشيرى ، وكذلك ماركوس اوريليوس وسانت اوجستين وشوبنهاور ومؤلفات روسو وأفكار باسكال .

كل واحد من هؤلاء وغيرهم ألوف منهوم لايشبع ولا يرتوى فى البحث عن الحقيقة فيجرى وراءها ويقضى حياته ويضحى بسعادته فى سبيلها ، وقد لايهمه نجاح سعيه بقدر مايهمه التفهم والتدوين والشرح والتفسير ، والكثرة منهم تعانى وتشقى وتذل

وتسـجن وتنفى وتموت ولكنها لاترتدع ولاترعوى ولا تمتنع ، وقـد يكون لهم معاصرون يسلكون خططهم ويتتبعون خطاهم ويأتى بعدهم من لايتعظ بسيرهم ، وقد يرى محنتهم أصحابهم وتلاميذهم فيتلذذون بمصايرهم ويسعون الى حتوفهم بأقدامهم كما وقع لچيرولومو سافونارولا فى ايطاليا فى القرن الخامس عشر ولأتباعه وكما وقع للحلاج وأصحابه ، فقد لفق له حامد بن العباس وزير المقتدر العباسى سنة ٣٠٩هـ قضية للإيقاع به وبمن يقول قوله فأحضر أبا العباس أحمد بن محمد بن عطاء وكتب الحلاج اعتقاده فسأله الوزير عما قاله الحلاج فقال من لايقول بهذا القول فهو بلا اعتقاد ، وكان الوزير يريد أن يكون أبو العباس أحمد شاهد إثبات على الحلاج فقال له :

ويحك ! .... تصوب مثل هذا الاعتقاد ؟

فقال أبو العباس : مالك ولهذا ؟ عليك بما نصبت له من أخذ أموال الناس وظلمهم مالك والكلام مع هؤلاء السادة ؟ (يقصد الى الحلاج وأصحابه) ، فأمر الوزير بضرب شدقيه (أى الصفع على وجهه) ونزع خفيه وأن يضرب بهما رأسه فما زال يفعل به كذلك حتى سال الدم من أنفه وأمر بسجنه (يعنى الحبس بعد تعذيب

الشاهد) فقيل له :

– أيها الوزير إن الرأى العام يهيج بهذا ، فحمل الى منزله ، وقتل الحلاج قبله بعد أن ضرب نحواً من ألف سوط وقطعت يداه ورجلاه ثم أحرقت جثته بالنار ونصبت يداه ورجلاه ورأسه أياماً على جسر بغداد .

وهذه الحادثة تبين لنا عن جانب من أخلاق هؤلاء الأفذاذ فى جميع نواحى الفكر وهى الشجاعة المعنوية والجسارة المدنية حتى ليستهدف أحدهم للعذاب والموت ولا يحيد عن رأيه مهما كان هذا الرأى قريبا أو بعيداً عن سعادتهم . أما منفعتهم المادية التى يقتتل الناس عليها والتى من أجلها أبدعوا نظرية تنازع البقاء وبقاء الأصلح والكفاح فى سبيل الحياة والنجاح فى الحياة ، فليست فى الدرجة الأخيرة من حسبانهم ، بل هى معدومة بتاتاً كما لو كان أحدهم أعمى أو أصم أو مقعد بالنسبة للنظر والسمع والحركة . ونحن لا نقول بخطأ هذه النظريات فى العصر الحديث والحضارة الحديثة التى تتردى ، ولكن نقرر الواقع والملموس فى جبلّة هؤلاء الأفراد ، وليسوا أيضا بطلاب مجد أو شهرة كالتى ينشدها القواد والساسه والطغاه والمتصنعون من الأدباء ، فهذا أبعد الأشياء عن

أفكارهم . وقد عرض على كثير منهم أموال الدولة ومباهج الحياة والمناصب العالية التى يفرح بها أطفال الرجال كما يفرح الأطفال باللعب ، ولكنهم أعرضوا عنها وقابلوا عارضيها بابتسامة ساخرة ، وقد رأينا المتصنعين والمنتفعين والمخادعين من رجال السياسة ينطوون تحت ألقاب الممالك وأوسمة مايسمونه الشرف والأموال المكتسبة من أية الطرق ، فيصبح هذا وزيراً وذاك لورداً أو كنتاً أو باروناً ويقضى حياته فى مظاهر الفخامة والفخفخة الكاذبة وينسى ماضيه ويطلق مذهبه ودينه وملته ومبدأه ، والناس حوله يعجبون ولا يجرأون عليه ويتملقونه ولايصفعونه ويتألفون إليه ولايدوسونه بالنعال، لأن عقلية الإنسانية الدهماء وطغمة الأشرار هكذا مصنوعة وهكذا جبلت ، وهكذا عجنت بماء المطامع والهوان . وبينا يكومون المجلدات لتدوين الجرائم التى اقترفها هؤلاء المتقلبون والظالمون ومهرقو الدماء كبونابرت وقيصر والاسكندر وتيمور لنك واتيلا ، تراهم يقنعون بأسطر معدودات لتاريخ هؤلاء العظماء الذين خدموا الإنسانية .

وإنك لترى أمماً بأسرها فى هذا العصر غارقة فى بحار الغفلة والأثرة ، بل فى محيط من الجمود العقلى ، فكيف تقرب إلى

أذهان بنيها بعض الحقائق التى تقوم عليها حياة الفكر فى العالـم ؟.

(٩) علاقة المعاصرين بالنوابغ

إن شباب مصر منذ أمد طويل ، على مافيهم من سلامة النفس وإخلاص الطوية – على حد قول بعضهم – كان لأغلبهم مايدفعهم الى المضى على ماوجدوا آباءهم عليه من طلب الوظيفة بمجرد إتمام الدراسة الابتدائية أو الثانوية ، ومن استطاع فالدراسة الجامعية حتى إذا ظفروا بها آثروا الراحة والدعة ، وإن كانوا من أبناء الأعيان وأولاد الذوات عكفوا على اللهو واللعب والهزل والشهوات ولم ينفذوا في الحالين من الحياة الى صميمها ، ولم تشغلهم شؤون عامة أو أمور عقلية ما شغلتهم أمورهم الخاصة وبذويهم وأصدقائهم ، وهؤلاء الناس اذا شبّوا على الجهل وحب الذات شابوا عليهما . فلم يفتح أحدهم كتاباً ولم يتدبر بحثاً ولم يتعب نفسه فى فهم مسألة ولا قضى ساعة فى تأمل خوفا على نظام الهضم . وحتى الذين يقتنون مكتبات خاصة جعلوها للزينة وهم أندر من الكبريت الأحمر ، وقد يبقى الكتاب عندهم عشرات السنين

بكراً لم تفض أوراقه ولم تقطع أطرافه فلم يدروا مابه وقد يكونون أحوج الناس إليه ، ولم يتبعوا فكرة ولم تلفتهم طرائف العلم والأدب بل تراهم عواماً وأميين حقا وهم أعيان وكبار حكماً وتقليداً ، يصبحون فيأكلون ويمارسون الأعمال تصويراً لاتفكيراً ولمساً لا فحصا وهواية لا دراية ووهماً لا فهما ، فإذا شارفت الظهيرة اندفعوا الى موائدهم يأكلون أكلا لمّاً ويتفننون في الطعام وهو ما يتقنونه حق الإتقان ، ثم يأوون الى مخادعهم فيقيلون ويتخمون ثم يتيقظون كالمشدوهين فلا تفيقهم إلا المنبهات والماء البارد ، ثم ينحدرون فى أجمل زينة ومازالوا يتثاءبون كالمخدرين ولهم أبدان متورمة وبطون منتفخة وأوداج بارزة وأقفية غليظة تخفى وراءها عقولا فارغة أو مشغولة بالسفاسف وقلوباً قاسية لايتعدى شعورها تدبير ذلك اللحم المترهل وذلك الشحم المتكدس ٠

هذه هى حياة الجسد الذى يتحكم فيهم ويسوقهم سوق الأنعام فى طريق شهواته المعادة ، وهذه فلسفتهم المشيدة على أمثالهم السائرة « يارب نفسى » ، « اسألنى عن حالى » ، « من بعد راسى ماطلعت شمس » ، « إن جاك الطوفان حط ولدك تحت رجليك » ، « شيلنى وأشيلك » ، « كل واحد لنفسه والله للجميع » ،

«أحيينى النهارده وأمتنى بكره » ، بفلوسك الحلوة . . على العلوة »، « للصاحب على صاحبه . . وشهادة الزور ! » ، « اللى له ظهر ماينضربش على بطنه » ، « يابخت من كان النقيب خاله » ، « خير ما عملنا شر جانا منين » ، « على قلبها لطولون » .

وعليك أن تستمع الى أحاديثهم فى بيوتهم وفى مقاهيهم وحاناتهم وعلى موائد لعبهم فى أفراحهم ومآتمهم لتحكم على قليل من كثير .

فكيف لهؤلاء أن يتذوقوا الأدب والفنون والحكمة ، وهؤلاء هم الجماهير والرأى العام الذين تعرض عليهم بضائع العلماء والأدباء فيتهافتون على انتقاصها ، وإذا وصلت الى أيديهم مجاناً ألقوا بها فى غير اكتراث ولو سمعوا سيرة عالم أو أديب ، ولم يجدوا مايلذعونه به من ذبانهم أو أنيابهم الخازنة لسموم ألسنتهم كان أفضل مايقولونه « بالله فضونا من السيرة دى » لينغمسوا فى حياة الغيبة والنميمة وأكل لحم بعضهم بعضاً وليتهالكوا فى المباهاة والتفاخر بالمآكل والمشارب ووصف الأطعمة والأنبذة وعلاقة الأجناس وهو موضعهم المختار وحديثهم المفضل وفكاهتهم المصغاة التى لاتمل ، وفى الدرجة الثانية بعدها النكتة البارعة التى تعقبها القهقهة

التى لايجيدها كائن فى العالم حتى ولا القردة . ومايبيتون عليه يصبحون به وهكذا الى آخر الدهر . فما أخذوا شيئاً أخذ الجد ولا وقروا مايستحق التوقير ولا رحموا ولا تدبروا ولا أفاقوا ولا فقهوا . ولو صح قول الرسول إن الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا فلا يصح على هؤلاء لأنهم لن ينتبهوا مهما دق ناقوس الموت فى آذانهم الصماء ! .

لم يتذوقوا شعر شاعر إلا تقليداً ولم يرووا شعراً إلا تفاخراً وما عرفوا قدر فرد إلا ووراء هذه المعرفة نفع يسعى كالأفْعَى ينساب من جحور أنفسهم المظلمة الى أقدام ذلك الفرد ، فإن لم يصادف هواهم فعدوهم الألد وهدفهم الذى يحكمون رمايته وخصمهم الذى يتعمدون تحقيره وزرايته .

حدث هؤلاء عن كرب الكاظمى وضيق حافظ وهمّ المويلحى تجدهم وآباء هم أقسى من قلب أبى إبراهيم على إبراهيم وفرعون موسى على موسى وملك بابل على اليهود قبل وساطة أستير . وحدثهم عن جمال ساق أو صوت قينة أو فتنة داعر أو ليونة وسيط تلق قلوباً أرفق من قلب يعقوب على يوسف وأفئدة أشغل من فؤاد قلب امرأة عمران قبل أن يمسى فارغا باطمئنانها على ولدها .

ولسنا نعرض صورة صارخة الألوان مبالغة فى الحق أو رغبة فى رفع نقاب قد رفعته والله الحوادث من قديم وأزاحته يد الواقع منذ أجيال ، ولكن لنحدد العلاقة بين الأدباء والعلماء وأهل الفنون ورجال الحكمة وبين هؤلاء الذين يعاصرونهم • ومهما كانت أحوال هؤلاء المنكوبين بذكائهم ومواهبهم وميولهم للعلم والأدب وإصلاح المجتمع فى كثير من أقطار العالم ، فإن نصيبهم من البلاء والنكد والضنك فى البلاد العربية عامة وفى مصر خاصة أسوأ من نصيب كل من عداهم من أمثالهم فى العالم ، ومثلهم على حد قول فيكتور هيجو الذى نقله حافظ الى العربية مثل البائس الذى يدب فى نفسه اليأس دبيب العقم فى الأبدان والآجال فى الأعمار والغريق الذى ظفر به البحر الهائج فلبث معلقاً فى خيط الأجل تحت شقى الفناء يَفتح له الوهم بين كل موجتين قبراً ويمد له الخوف بين كل قطرتين بحراً ، يطفو به القدر ويرسب به القضاء فتلتقفه الموجة بعد الموجة وتلتقمه اللجة بعد اللجة ، حنق عليه الماء والهواء وزهدت فى وجوده الأرض والسماء وكلما هم بالاستسلام للموت أدركه الحرص على البقاء فجعل يجالد الأمواج ويصارع البحر حتى اذا نزح التعب قواه طواه اليمّ فيما طواه طى سر الجرائم فى أفئدة

المجرمين .

هل هم مرضى أحوج الى علاج أنفسهم منهم الى معالجة الآداب والفنون والحكمة فى أقوام لا تفقه ولا تريد أن تفقه ؟ .

ألا تشريع يردع الناس عن التفكير فى خير الناس ؟ ألا قانون يحرم الاشتغال بما لايقبل عليه الناس إلا بعد موت صاحبه وفوت أوانه ؟ ألا معهد علمي يدرس معقولية هؤلاء الأدباء والفصحاء والعلماء حتى اذا استبان خبالهم منعهم عن العبث بأعمارهم ونهاهم على الأقل عن جناية كجناية والد أبى العلاء ؟ إن قنطار كلمة وأدب لايعدل رطلا من ذهب ودنّ شعر وفلسفة لايعدل كاساً من شراب .

يفحص الموظف والجندى فحوصاً كاملة فى عافيته وسمعه وبصره وعقله وعلمه وسنه لأنه سيتقاضى دنانيرُ معدودة من مال الدولة ، ولا يفحص العالم ولا الأديب ولا الشاعر لأنهم لن يمسّوا مال الدولة ولكنهم قد يجنون على أنفسهم وعلى ذويهم فليكن شأنهم الى مايشاءون لا مايشاء العدل والنظام والرحمة ، أليست هذه حقيقة الواقع ومايقودنا اليه المنطق . لقد ضربوا مثلا فى قوة سلطان العقل والخلق بشرانم حسن بن صباح التى كان يأمرها

أمام وفود أعدائه أن تلقى بنفسها من حالق فتطيع سراعاً تباعاً الى الهلاك كأن لاعقول لها ولا سمع ولا بصر ! وهؤلاء الأدباء والشعراء والحكماء الذين يلقون بأنفسهم فى مهالك الحياة أكثر تخديراً وانخداعاً ، ولئن ضحى الأولون بأنفسهم لغاية وهى إقناع الشاهدين بقدرة الشيخ على التأثير والتسخير والأمر غير مدافع ولا منازع ولا معارض ، فما غاية هؤلاء الجموع من أهل الأدب والفنون والحكمة يلقون بأنفسهم الى التهلكة ؟ أهم ضحايا بغير عقائد ، أم هى عقائد لا حقائق وراءها أم هى حقائق كالأخيلة ووقائع كالأوهام؟ قال لى أحدهم : لقد عرضوا على الاتجار فثرت وحنقت فاختاروا أبله لايفهم الكلام العادى فأبلى فى البيع والشراء حتى أصبح من ذوى الثراء ، وعرضوا علىَّ منصباً فى الحكومة فاستهنت به ولاذ به غرٌّ فإذا هو اليوم فى أرقى المناصب وأضخمها راتباً وهو من أكثر الناس عيوباً ولكن رداء الوظيفة أضفى من ستور الأولياء المزيفة ، فقلت له ألم تسمع بما دعت أم الاسكندر لولدها ؟ قالت اللهم اجعله ذا حظ يستخدم به ذوى العقول ولا تجعله ذا عقل يستخدمه ذوو الحظوظ .

فافهم الناس هنا لايطلبون العلم ولا ينشدون ضالة المؤمن ولا

يطربون للشعر ولا يؤمنون بالأدب ، الناس هنا عّباد شهواتهم وأسرى ملذاتهم ، عقولهم أحراس على أبدانهم لاتحسن غير تدبيرها ولا تؤتمن إلا على إنمائها وتغذيتها وتضخيمها وتفخيمها فما حاجتهم الى مايرقى الروح ، دونك ومايخدم الجسد يتهافتون عليك ويقدمون القرابين بين يديك ويسلمونك زمامهم وتمشى وأنت تستثمرهم مقدمهم وإمامهم .

محمد لطفى جمعه

الفهرس

الصفحة

مؤلفات محمد لطفى جمعه

أولاً : المؤلفات المطبوعة :

١ – فى بيوت الناس (قصص) – نفد .		١٩٠٤
٢ – فى وادى الهموم (رواية) – نفد .	مطبعة النيل	١٩٠٥
٣ – تحريرمصر(سياسة – مترجم) – نفد	مطبعة النيل	١٩٠٦
٤– محاضرات فى تاريخ المبادىء الاقتصادية والنظامات الأوروبية (اقتصاد ونظم الحكم) – نفد .	مطبعة النيل	١٩١١
٥ – الحكمة المشرقية (يضم ثلاثة كتب هى : حكم فتاح حوتب وروضة الورد للشيرازى والتعليم الراقى للمرأة اليابانية) – ترجمة ودراسة – نفد .		١٩١٢
٦ – حكم نابليون (مترجم) – نفد	مطبعة البيان	١٩١٢
٧ – ليالى الروح الحائر (أدب) – نفد	مكتبة التأليف	١٩١٢
٨ – الأمير « لميكافللى » (ترجمة ودراسة) – نفد .	مكتبة التأليف	١٩١٢
٩ – مقدمة قانون العقوبات ومبادىء العلوم الجنائية (قانون – مذكرات فى القانون الجنائى لطلاب السنة الثانية من قسم الحقوق بالجامعة المصري) – نفد .		١٩١٧

١٠ - تاريخ علم الاجتماع (اجتماع) - نقد .		١٩١٩
١١ - مائدة أفلاطون (دراسة فلسفية - مترجم) - نقد .		١٩٢٠
١٢ - الشباب الراصد (نقد كتاب « فى الشعر الجاهلى » لطه حسين) - نقد .	مطبعة المقتطف والمقطم	١٩٢٦
١٣ - تاريخ فلاسفة الإسلام (فلسفة إسلامية) - نقد .	مطبعة المعارف	١٩٢٧
١٤ - الشيخ محمد عبد السلام (سيرة متصوف مصرى) - نقد	مطبعة حليم	١٩٢٧
١٥ - حياة الشرق ودوله وشعوبه وماضيه وحاضره (سياسة وتاريخ) - نقد .	دار إحياء الكتب العربية	١٩٣٢
١٦- سجل أشهر القضايا العالمية (قانون - عدد واحد) - نقد .	مطبعة حجازى	١٩٣٤
١٧ - بين الأسد الإفريقى والنمر الإيطالى (سياسة - بحث تاريخى اجتماعى فى المشكلة الحبشية - الإيطالية) - نقد .	مطبعة المعارف	١٩٣٥

سلسلة مسامرات الشعب (روايات مترجمة) :

١٨ – الساحر الخالد – عدد ٤٠ مسامرات الشعب – نفد		
١٩ – الانتقام الهائل – عدد ٤١ مسامرات الشعب – نفد		
٢٠ – الكنز الدفين لكونان دويل – عدد ٤٧ مسامرات الشعب – نفد		
٢١ – الجسد والروح – عدد ٤٨ مسامرات الشعب – نفد .		
٢٢ – ثورة الإسلام وبطل الأنبياء أبو القاسم محمد بن عبد الله (سيرة الرسول ﷺ – الجزء الأول) – نفد .	مطبعة الحلبى	١٩٤٠
٢٣ – ثورة الإسلام وبطل الأنبياء أبو القاسم محمد بن عبد الله (الجزء الأول مضاف إليه باقى الأجزاء كاملة) – نفد	مطبعة النهضة المصرية	١٩٥٩
٢٤ – نظرات عصرية فى القرآن الكريم (تفسير)	مكتبة عالم الكتب بالقاهرة	١٩٩١
٢٥ – مخطوطات مسرحيات محمد لطفى جمعه – الجزء الأول – المسرحيات		

المؤلفة (قلب المرأة – خضّرْ أرضك – فى سبيل الهوى – يقظة الضمير – الأم المتعبة) – إصدار ودراسة نقدية تحليلية للدكتور سيد على إسماعيل الأستاذ بكلية الدراسات العربية بجامعة المنيا .	مطبعة هلال بالمنيا الناشر مكتبة زهراء الشرق القاهرة	١٩٩٧
٢٦ – قطرة من مداد لأعلام المتعاصرين والأنداد – تراجم مصرية وأجنبية .	عالم الكتب بالقاهرة	١٩٩٨
٢٧ – نحو أدب روائى عالمى جديد (عولس لجيمس جويس – أدب ونقد)	عالم الكتب	١٩٩٨
٢٨ – مع الكتب فى سبيل المعرفة – تاريخ تكوين عقل (أدب ونقد)	عالم الكتب	١٩٩٩
٢٩ – الفلاكة والبوهيمية فى الأدب القديم والحديث (أدب)	عالم الكتب	١٩٩٩
٣٠– مباحث فى الفلولكلور (أدب ومأثورات شعبية)	عالم الكتب	١٩٩٩

ثانيا : تحت الطبع :

– الأيام المبرورة فى البقاع المقدسة (رحلة الحج والزيارة النبوية فى عهد الملك عبد العزيز آل سعود) – أدب رحلات .

- تذكار الصبا أو ذكرى ١٩ مارس (جزآن - مذكرات وسيرة فى الرحلة والسياسة والأدب والفنون)٠
- شاهد على العصر (مذكرات محمد لطفى جمعه ١٨٨٦ - ١٩٥٣) ٠
- عايدة (رواية)٠
- مختارة (رواية)٠
- الفتى العادل (رواية)

رقـــم الإيـــداع

٩٨ / ١١٢٢٣١

I.S.B.N.
977 - 232 - 152 - 1



مطبعة السلام الحديثة

١٠ش عبد السلام منسى
المتفرع من الشهيد أحمد حمدى
مدكور - فيصـــل
ت : ٥٨٣١٩٣٠